



على بعد مليمتر واحد فقط

أو "زهرليزا"

للكاتب:

عبد الواحد استيتو

منشورات ومضة

باإشراف:

عبد العزيز الزروالي

الإدارة العامة:

سميرة شعيبي

تنضيد وإخراج النصوص:

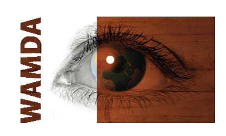
سكينة بن بقاس الفيلالي

المتابعة الفنية:

نبيلة البستاني

العنوان: عمارة الأمانة شقة 1 الطابق 7
ملتقى شارع سيدي محمد بن عبد الله وشارع كوتمبرك، طنجة.

الهاتف: 614 394 61 06 / 273 949 39 05
البريد الإلكتروني: zarouali2000@gmail.com





كتاب	: رواية "على بعد مليمتر واحد فقط"
الكاتب	: عبد الواحد استيتو
تصميم الغلاف	: مروة الجيلالي وأميمة بنسلام
صورة الغلاف	: صورة "زهرليزا" مأخوذة عن موقع المتحف الأمريكي بطنجة: http://www.talimblog.org
التدقيق اللغوي	: الحسن صبار
الطبعة	: الأولى 2013
الإيداع القانوني	: 2013MO 1901
الترقيم الدولي	: 978-9954-608-03-6
النـاشر	: منشورات ومضة



-1-

يرشف كأس الشاي الساخن ببطء وينظر إلى سقف الغرفة متأملا. الغرفة عالمُه والسقف سماؤه. يقضي هنا كل يومه، بل ونصف ليله. عاطلٌ هو، غير يائس وغير متفائل. يعتبر نفسه شخصا محايدا. لقد كفّ عن التفلسف منذ مدة. فقط يجلس ويُــفسبك. يبحر في عالم الفيسبوك ليل نهار. يقتل الوقت. يقتله الوقت.

لديه 2111 صديق لحد الآن لا يعرف عُشرهم لكنهم يؤنسون وحدته.. يملؤون فراغهُ الذي فرغ من كل شيء منذ تخرّج.. هكذا، مثل بالونة شككتها بدبوس فأصبحت كجِــلد عجوز في الغابرين.

درسَ. اجتهدَ. تفوق أحيانا. اجتاز الأمر بصعوبة في أحيان أخرى. ومارس هواية النقل من الآخرين أحيانا كثيرة. في الأخير نجح في التخرج بمعجزة ما. هو ابن بيئته ولا مفر له مما يحدث. أحيانا يشعر أنه مجرد كرة بين أقدام لاعبين، يتقاذفونها كما يشاؤون دون أن تمتلك - هي - حيلة أو تهتديَ سبيلا.

يطلق زفرة قوية، حارّة كشهر غشت. يعيد رشف الشاي ويقرأ بضع تعليقات على ما كتب على جداره الفيسبوكي.

«محاولة فاشلة للتذاكي.. هل كتبت ما كتبت لأنك تؤمن به أم لأنك تريد أن تظهر لنا أنك حكيم زمانه؟»

كتبت له إحدى «صديقاته» التي لا يعرفها هذا التعليق على جملة كان قد كتبها في جداره. تقلصت ملامحه. يكره هذا النوع السلبي من البشر. آخر ما يحتاجه في هذا الوقت بالضبط هو أن ينزل أحدهم بمعنوياته إلى الحضيض. في قرارة نفسه يعرف أنها قد تكون صادقة، لكن مزاجه بعيد جدا عن قدرة المحاورة أو الرد. المسألة بسيطة جدا ويفعلها في كل مرة دون تردد. هكذا تجري الأمور في الفيسبوك.. سلسة وسريعة. اضغط زرّ «امسح» وينتهي الأمر إلى الأبد.

بشكل ما، بطريقة ما، دون سبب معقول إطلاقا.. توقفت سبابته على بعد مليمتر واحد من زر الفأرة. تردد لثانية واحدة، ثم قرر التراجع والرد عليها.

كتب في رده «حسنا.. حسنا.. أنا أعرف هذا النوع من البشر.. أنت لا تعلقين أبدا.. أنت تقبعين منتظرة مثل هذه الفرص كي تفرغي كل ضغوطك وعقدك في

أحد الفيسبوكيين، ويبدو أن اليوم كان دوري في خطتك الأزلية لتصيد الضعفاء الذين يحبطون بسهولة!! يمكنك أن تكتبي ألف تعليق مثل هذا، لكن الحقيقة أنني لا أعبأ.. للأسف».

ردّت عليه. ردّ عليها. خفت حدة الحوار تدريجيا. توادعا بأدب وبدون مودة. لم يتفقا على لقاء. لم يهتم كثيرا هو بالحديث الذي دار بينهما، لكنه شعر أنه استعاد بعض الثقة التي كان سيخسرها لو انتصرت عليه في حوارهما السريع. لم يرفع الراية البيضاء ولم يدخل في معركة من الأصل. انتهى الأمر بتوقيع معاهدة سلام غير مكتوبة معها. ابتسم ابتسامة رجل راض عن نفسه. لقد نجا من ليلة اكتئاب فيسبوكية حادّة. هكذا قال لنفسه قبل أن يقهقه بقوة ويدير ظهره لجهاز الكمبيوتر ولجدار الفيسبوك، وينظر إلى ذلك الشق في حائط جداره، ويضم الوسادة بقوة إلى رأسه كما يفعل دائما منتظرا حدوث معجزة النوم. وغدا يوم آخر.

-2-

صباح جديد. الحقيقة أنه ليس جديدا تماما، بل يشبه ما سبقه من أصباح. فقط، سينقص يومٌ من عمره، وسيزداد دفتر الديون لدى بقال الحي امتلاءً.

كان أول ما فعله هو أن مدّ يده وأشعل جهاز الكمبيوتر كما تعوّد دائما. بتثاقل نهض إلى الحمام وغسل وجهه بسرعة محاولا تجاهل برودة الماء الشديدة. مسح وجهه ونظر إلى المرآة المتكسرة والمليئة بالبقع. قضى بضع دقائق حتى استطاع رؤية كل وجهه، فالمساحة الصالحة المتبقية من المرآة قطرها بضع سنتمترات فقط.

نزل الدرج المهترئ الذي يحفظ تضاريسه عن ظهر قلب. استعدّ لواحدة من اللحظات التي يكرهها في اليوم كله. طلب من البقال علبة شاي وقطعة جبن وهو يفتعل اللامبالاة. حاول أن يداعب أنف طفل كان بجواره فكاد يقضم إصبعه. سمع البقال وهو يدندن بكلمات مفادها أن ديونه قد ازدادت كثيرا وأن الوقت آن لينتهي هذا العبث. لم يحاول حتى الالتفات إليه وهو يمد يده إلى بضاعته ويسحبها وكأن شيئا لم يكن.

عزة نفسه تتخلى عنه تدريجيا. شاء أم أبى فقد أصبح رجلا غير مرغوب فيه في أماكن كثيرة. أي مصائب أخرى قد ترغمه الحياة على ارتكابها؟ تساءل في نفسه.

اشترى قطعة من أكلة «الحرشة» بــ 3 دراهم كانت هي كل ما تبقى له، ثم عاد إلى البيت ليعيش أجمل لحظاته إلى جوار عالمه الافتراضي. هنا لا أحد يعرفه إلا القليل. لا أحد يعرف أنه عاطل. لا أحد يعرف أنه مديون. لا أحد يعرف أنه ترِبتْ يداه.

العالم الفيسبوكي الأزرق يفتح ذراعيه له من جديد. الكأس في اليد وقطعة «الحرشة» في اليد الأخرى، والأصابع - رغم ذلك - تتحرك بيسر وسهولة بين أزرار لوحة المفاتيح.

يعلق على بعض المستجدات، ويفكر في كتابة خاطرة مناسبة للوضع الذي هو فيه. قبل أن يفعل سمع صوتا، نقطة ماء تهوي في سطل.. كان هذا صوت رسالة فيسبوكية آنية...

- صباح الخير

- صباح النور

- أتذكرني؟

- أكيد.. المعلّـــــقة المتحذلقة؟ (أمزح)

- نعم..هي أنا.. كيف حالك؟

- أنا بخير.. لدي كل ما أريده في هذه اللحظة.

- يسعدني أنك قادر على الدردشة بالفصحى.. تزعجني كثيرا تلك «العرنسية» التي يستعملها البعض (مزيج بين الفرنسية والعربية).

- لازلت أجد متعة كاملة في استعمال الفصحى.

- أنا شبيهتك.

- .....

- لازلتَ غاضبا مني؟

- إطلاقا..

- يسعدني ذلك..

- وأنا من السعداء بمعرفتك..

- لست من النوع الذي يطلب من الآخرين تقديم سيرة ذاتية عن أنفسهم، لكنني أتمنى أن أعرف عنك أكثر.

- صعبٌ هذا في ظل وجود صورة ممثلة هندية في «بروفايلك».. قد تكونين رجلا وجد أن قمة التسلية هي الدردشة معي.

- تريد أن تقنعني أن صورة بروفايلك هي صورتك الشخصية؟

- أبدا.. ولمَ أفعل؟ صدقي أولا تصدقي.. ذلك فعلا شأنك الخاص.

- حسنا، لا تغضب. تبدو وسيما فعلا.

- ذلك نقشٌ لا يد لي فيه فعلا..

- تواضعٌ هوَ؟

- بل إدراك لتفاهة الإعجاب بشيء لا أمتلك في صنعه قطميرا!

- حسنا.. أعدك أن أضع صورتي في المرة القادمة.. مضطرة الآن للمغادرة..

- إذنك معك.. تفضلي.

عم الصمت من جديد. انتهى الصخب الإلكتروني كما بدأ. شعر ببعض الوحشة. لم يفهم كيف ملأت تلك المجهولة عالمه فجأة! ليس متسرعا أبدا. بل هو ممتلئ لحدّ التخمة بتجارب تجعله يكره التسرع. لكنه - بينه وبين نفسه - اعترف أن شيئا غامضا وغريبا يلوح من هذه المرأة. وليخرج من أسر هذه الأفكار أطلق بسبسة صغيرة. واتجه إلى ركن يطلق عليه إسم المطبخ مجازا. من مكان ما خرجت قطة تتعثر في مشيتها. عرجاء وعوراء. لهذا السبب بالضبط اختار أن يربيها. لكَـــمْ كره أولئك الذين يهتمون بالقطط الجميلة فقط. ما ذنب القبيحة؟ ما ذنب المريضة؟ الناس يفتعلون الطيبوبة والإنسانية بينما كل ما يهمهم هو إرضاء ذواتهم في الآخرين. حتى لو كان هؤلاء الآخرون حيوانات. «يا إلهي.. أنظروا إليها كم هي جميلة!». تقول إحداهن هذا وهي تضم يديها إلى صدرها وكأنها ملاك. فقط لأنها جميلة تهتم بها. يا له من منطق! الحقيقة أنها تريد أن تبدو في مظهر الرقيقة على حساب القطة. هكذا فكر. هذا النفاق البشري يصيبه بالغثيان. انحنى ووضع قطعة الجبن الأصفر جوار القطة التي بدأت تلحسه بامتنان. ربَّتَ على رأسها وعاد إلى عالمه الأزرق.

-3-

ليل طنجة يبدأ صمته الصاخب. يضع ذقنه على ظهر كفه وهو ينظر إلى أضواء الميناء الناعسة التي عشقها دوما. منذ طفولته وهو يطل من نافذة غرفة نومه عليها. يستلذّ ذلك الشعور بأن هناك بشرا يسعى في الوقت الذي ينعم فيه الآخرون بموتهم الأصغر. بشرٌ جاؤوا للتو من عالم آخر إلى عالمه هو، على متن الفلك المشحون.

عندما توفيت والدته منذ ثلاث سنوات، طلب منه صاحب الشقة المغادرة لأنه يريد أن يبيعها. كان حزينا محبطا وقتها ولا يمتلك أي قوة للجدال الشفهي أو القانوني. لكنه كان يدرك أنه في موقف قوة مادام يقطن بالشقة ولم يخرج منها بإرادته. بعد مفاوضات دامت سويعات قليلة، اتفق مع صاحب البيت أن يمنحه تلك الشقة المنمنمة قرب السطح بدون مقابل لمدة ثلاث سنوات، على أن يخرج للتو من الشقة التي صرخ فيها صرخته الأولى. عزّ عليه ذلك بشدة، لكنه آثر السلام النفسي على الصراع.

كان يعلم أن نافذتيْ الشقة الجديدة تطلان على ميناء المدينة.. وكان هذا يكفيه جدّا.

صوت قطرة الماء إذ تهوي في سطل...

- خالد.. أنت هنا؟!

استدار إلى شاشة الجهاز فوجد ذلك المربع الفيسبوكي الصغير يتألق ويدعوه، بإغراء، أنْ تعال. اعتذر لطنجة وميناها بنظرة أخيرة، واعتدل في جلسته أمام زرقته الافتراضية.

- نعم.. أنا هنا يا هدى.

- الفيسبوك كان يخبرني أنك «غير متاح».

- لا تصدقيه كثيرا، فقط تركت الجهاز منذ ساعة فاعتقد أنني متّ ربما.

- هه..ما أظرفك.. المهم، كيف أمسيت؟

- جيد. ماذا عنك؟

- بخير. مشتاقة للحديث معك فقط.

- كلنا ذاك الرّجل.. بالأحرى، تلك المرأة!

- قل لي خالد، أريد أن أطلب منك شيئا - وهو أول ما أطلب مذّ عرفتك - فهل تسمح لي.

- لا تحتاجين للإذن أو السؤال.

- هل يمكننا أن نلتقي؟!

شعر بتنميل في جسده كله. احمرت أذناه وبدأ كفه الأيسر يرتعش كعادته كلما شعر بالتوتّـــر. كم كان يخشى هذه اللحظة. شهران وهما يتحادثان كل يوم ويتبادلان الأفكار. نمت علاقتهما الافتراضية بسرعة مقبولة. الجميل فيها أنها تخمّن أحيانا ما يفكر فيه دون حتى أن يكتب شيئا. تعرف ما يشعر به غير ما مرة. لا ينكر أنه معجب بها. الواقع أنه معجب بالصورة التي بناها في خياله. حاله في ذلك مثل حال ذاك الكاتب الروسي الذي قال واصفا تفكيرَ مراهق «لا أعرف ما هذا الذي أحبه بالضبط.. لكنني أحبه بشدة».

هو، أيضا، تعوّد على أن الواقع لا يمزح في مثل هذه الأمور. اللقاءُ يعني صدمة قوية وانهيارا تاما لتلك الصورة الجميلة التي أعجب بها. يعترف أيضا أنه جبان بعض الشيء. منذ أصبح مدمنا للزّرقة الفيسبوكية وهو يجد صعوبة في التعامل المباشر في كثير من المواقف. بينما يجد نفسه أسدا في عالمه الإلكتروني.

محظوظٌ هو لأنها أرسلت له صورتها. طلبُها اللقاء يعني أنها لم تكن كاذبة في هذا الأمر. وأن هدى في الصورة هي هدى التي سيلتقي بها، لكنه مع ذلك يخشى بشدة أن تُخدش تلك الصورة الافتراضية التي في ذهنه.. صورة الفؤاد وليس صورة الجسد.

- أنتظر جوابك.

- تعتقدين أن الوقت مناسب؟

- ما الذي يجعله غير مناسب؟

من أين له بالجواب؟ هو فقط يحاول المناورة.

- سأنتظرك غدا الاثنين في مقهى «الشانزيليزيه» في شارع «البوليبار» على الساعة السادسة مساء. غالبا ستجدني بانتظارك. اعتن بنفسك.

لم تنتظر جوابه. غادرت بسرعة وكأنها تحسم الأمر. سبق أن لمحت له بخصوص

رقم هاتفه فأبى بذكاء. الآن هي تطلب المقابلة بشكل مباشر، وهو يبدو كجبان رعديد لا يستطيع المواجهة. الحقيقة أنها «كانت» تطلب المقابلة. أما الآن فهي «تنتظر» المقابلة تاركةً الأمر بين يديه.

بقي متسمرا في مكانه يتأمل مؤشر الفأرة وهو يتراقص وكأن رعشته هو قد انتقلت إليه. في حين كان يأتي صوت رخيم من بعيد يدندن بالإنجليزية «لونلي لونلي مانداي مورنين.. أند أي ديدنت هاف نو كومبني.. أورّايت.. أورّايت».

أطل برأسه من النافذة فبدا له أحد أفارقة جنوب الصحراء جالسا فوق عتبة باب العمارة، وهو يطوح برأسه يمنة ويسرة متغنيا..

كان الصوت شجيا حقا، مشفوعا بحزن ملحوظ. هوت من عينه دمعة دون أن يشعر.. قال لنفسه: أنت «لونلي» يا صديقي.. وأنا كنت أريد أن أكون «لونلي».. لكن هذه الوحدة ستنتهي غدا على ما يبدو.. الاثنين أيضا!

-4-

يضم معطفه بقوة إلى صدره وهو يتأمل النوارس التي تلهو بالقرب منه وتتسلى بتبادل الصياح بينها. شاطئ طنجة شبه خال. البرد منع الكثيرين من الخروج. هو آثر أن يمر على البحر ليحادثه قليلا كعادته قبل أن يعرج على شارع البوليبار ليلتقي هدى بمقهى الشنزيليزيه.

قضى ليلة نابغيّة وهو يقدم فكرة ويؤخر أخرى. لقاء أنثى يشترك معها في أفكار كثيرة يبدو مثيرا، لكنه غير مستعدّ تماما لأية بدايات في هذه اللحظة. سفينة عمره تطفو - الآن - فوق بحر هادئ من السطح، متلاطم من الداخل. وهو لا يريد للأمواج أن تبرز على السطح.. على الأقل في هذا الوقت. لكنه في الأخير حسم أمره وقرّر اللقاء مع الاحتفاظ بسلاح مهمّ في جيب مشاعره: التحفظ.

ما لا تعلمه هدى أيضا أن مجرد لقائه معها سيكلفه بعض المال الذي لا يملكه. لهذا، اتصل في الصباح بصديقه «منير».

- صباح الزفت.

- علينا وعليك.

- قل لي، كم رأسمالك الحالي؟

- 350 درهم هي كل ما أملك.. لماذا؟

- حسنا، أحضر لي 300 درهم، أحتاجها للأهمية.

- لكن.. لن يتبقى لي سوى 50 درهما، وكنت أريد...

- سأنتظرك في البيت في الواحدة زوالا..

قبل الواحدة بقليل كان «منير» يدفع الباب الموارَب ويدخل. تبادل بعض الكلمات مع خالد على سبيل التحية. قبل أن يبدأ بشكوى طويلة حول حاجته إلى المال وخالد صامت تماما يواصل حلق ذقنه.

- هل انتهيت؟

- نعم..

- حسنا، ضع 300 درهم فوق المائدة، وانصرف أو ابقَ معي إن شئت.

- بل سأنصرف.. لدي مشاغل عدة.

- إذن، توكّل على الله.

- سأفعل. لعنة الله على صداقة الأوغاد أمثالك.

يقهقه خالد. يرفع منير كتفيه مستسلما ويضع المبلغ على المائدة ثم يسأل:

- متأكد أنك لا تريد أكثر؟

- لا.. يكفي هذا..

يغادر منير فيتنهد خالد مغمغما «الله يحشرنا مع الدراوش».. منير هو صديق طفولته. يشتغل بالنجارة ولا يفهم لا في الأدب العربي الذي أجيز فيه هو، ولا في غيره. مستواه التعليمي بسيط، لكنه تشرّب معاني أصيلة من بيئته فكان له نعم الصديق دائما. الأغنياء الذين صادقهم لفترات قصيرة كانوا يخذلونه دائما. هناك ارتباط عجيب بين الثراء والخسّة.. المصيبة أن جل الأصدقاء الأثرياء الذين عرفهم كانوا بالكاد يصمتون من الحديث عن الدين وفعل الخير، وبمجرد ما يحتاج أحدهم ينكص على عقبيه ويستغشي ثيابه. بينما البسطاء كانوا دائما يصدمونه بكرمهم وبأخلاقهم. مع منير لا يحتاج للافتعال أو لادّعاء أي شيء. يتصرف كما هو. يعلم أن منير لو لم يكن معه سنتيم واحد فسيذهب ليستلفه كي لا يترك صديقه في ورطة.

ردد من جديد «الله يحشرنا مع الدراوش».

كان يفكر في كل هذا وهو يقترب من مقهى الشانزيليزيه. الساعة تشير إلى الخامسة وخمسين دقيقة. أتراها سبقته إلى هناك؟

التقط نفسا عميقا ثم دخل. تفحص وجوه رواد المقهى في الطابق السفلي، فلم تبدُ له هناك. صعد الدرج إلى الطابق الثاني الذي بدا له فارغا إلا من شخص واحد يجلس في ركن شبه مظلم.. أتراها هي؟

اقترب أكثر حتى استطاع الرؤية فوجد أنها هدى فعلا. بدا أنها لم تنتبه له وهي تصلح شيئا ما في حقيبتها اليدوية. فكر للحظة في التراجع لكنها رفعت رأسها في ذات اللحظة فالتقت عيناهما ولم يعد هناك من مفر من اللقاء.

-5-

مضت ساعتان. لم يشعر إطلاقا بالوقت. التهمه الوقت وهو يلتهمُ كلماتها وسكناتِها. نزع سلاح «التحفظ» من غمده ووضعه على جنب دون أن يشعر. بدا له أنها هي أيضا استحلَت الجلسة.

فاجأه كثيرا أن القالب الذي وضعه في ذهنه تناسب تماما مع هدى دون أن يحيد مليمترا واحدا. تخوفه وحذره اللذان رافقاه حتى مقعده غادرا بعد دقائق من بدء حديثهما إلى غير رجعة.

الحب هو تلك المجموعة من التصورات التي نضعها عن فارس - أو فارسة - الأحلام. عندما يأتي الشخص المناسب لايقوم بشيء سوى أنه يحتل تلك الصورة بجسده المادي. في قرارة نفسه يقاوم بشدة كي لا يسمي ما يحدث حبّا، لأن هذا سابق لأوانه بشدة.

يشعر بالإعجاب والارتياح وهو يحادث هدى، لكنه لا يريد أن يتورط. تجاربه في الحبّ قليلة ومعدودة. النساء اللواتي أحببنه قليلات.. لكنهن أحببنه بصدق. وهذا ما يخيفه دائما.

يعرف أن حب أي امرأة له ليس أمرا يسيرا بسبب طبعه المتحفظ. لكن عندما يحدث الأمر يكون من الصعب جدا الخلاص منه. والخلاص لا يأتي بمحض إرادته طبعا. دائما تحدث أشياء ترغمه على أن يكون هو صاحب المبادرة في إنهاء أي علاقة.. ولَكم عانى من هذا الأمر في كل مرة. كأنه ينزع صنارة صيدٍ عنوةً من لحم جسده.

هدى مليحة القسمات بشكل كبير. جميلة؟ لا يحب هذا التعبير في الحقيقة. الجمال من وجهة نظره نسبي دائما. قطته العرجاء العوراء التي يربيها يراها هو، مثلا، جميلة جدا.

عندما تبتسم هدى تلوح في خدها الأيسر غمّازة. إحدى سنّيها الأماميتين تعتلي الأخرى بلطف. لم ينقص ذلك من ملاحتها بل زادها ألقاً.

قال لها:

- أتعلمين أنه لولا تردّد لثانية واحدة، ومليمتر واحد، ما كنت لأكون هنا؟

- حقا؟ كيف ذلك يا خالد؟

راقه أنها نادته باسمه مجردا. تنجح هي بشدة في رفع الكلفة بطريقة لطيفة قد يصعب حتى ملاحظتها.

- لقد كنت سأمسح أول تعليق لك على ما كتبت يومها في جداري على الفيسبوك.. بدا لي متحذلقا كثيرا! لكن سبابتي تراجعت في اللحظة الأخيرة بعد أن كادت تلمس زر الفأرة وتنهي كل شيء.

- يا إلهي! يالك من غليظ القلب. بهذه البساطة تمسح الأجناس اللطيفة من فيسبوكك؟

- بل قولي بهذا التعقيد. لم أصل لهذه النتيجة إلا بعد مدة طويلة من الإبحار في الفيسبوك. النقاشات الطويلة ترهقني بشدة، خصوصا أن البعض لا دور لهم في الحياة سوى إحباط الآخرين. إنهم فيسوباثيون، إن جاز هذا المصطلح.

تضحك هدى وتطوح برأسها إلى الوراء بخفة، فتتحرك مشاعره مرة أخرى. أتراها حركات عفوية أم مدروسة؟

- فيسوباثيون؟ مزيج من الفيسبوكيين والسايكوباثيين؟؟ مصطلح تستحق براءة اكتشافه.. في كل الأحوال، أنت تعلم الآن أنني لست منهم أو منهنّ. الحقيقة أنني كنت أتابع كتاباتك على جدارك لمدة، وكنت معجبة بها جدا.. وكان لا بد لي من تعليق يستفزّك. يبدو أنني نجوت من الحذف بسبب ترددك ذاك.

- إذن لم يكن مرورك محض صدفة..

- طبعا لا.. كما قلت لك. أنا معجبة بما تكتب منذ مدة. كنت أقول لنفسي أن كاتب هذه الأفكار إما أن يكون مؤمنا بها، فهو بالتالي شخص أكثر من رائع. أو أنه يردّد كلاما من أجل الحشو وملء الفراغ الفيسبوكي..

- وماذا اكتشفت؟

خفضت عينيها ثم رفعتهما. التقت عيناهما للحظات. مرة أخرى، تعبر تلك القشعريرة من وراء ظهره حتى أخمص قدميه. تفتعل هي اللامبالاة وتحرك ثمالة قهوتها.

- قلت لي أنك تقطنين لوحدك.. أين أسرتك؟

- أسرتي تقيم ببلجيكا.. لم أشأ أن أخبرك في بادئ الأمر كي لا يؤثر الأمر على مسار علاقـ.... أقصد مسار تعارفنا. أنا الآن، أمضي بضعة أشهر هنا من

أجل النقاهة. حصلت على إجازة مرضية من عملي فاخترتُ أن أمضيها في المغرب.

- لعلّك اعتقدت أنني سأكون من الباحثين عن «أوراق» بلجيكا؟

- لا، أرجوك. لا تفهم الأمر بهذا الشكل. فقط لكل حادثة حديث. الآن جاء الوقت لأخبرك.

- لا عليك. لم أكن يوما من المهتمين بالهجرة.

- أعرف هذا وليس من الصعب عليّ استنتاجه يا عاشق طنجة.

لحظات من الصمت كانت تغلف لقاءهما أكثر من مرة. يفكر وتفكر. يبتسمان. أسعده كثيرا أنها لا تستعمل الماكياج إطلاقا. يكرهه بشدة ويكره كل الروائح المنبعثة عن طلاء الأظافر وأحمر الشفاه وكل عائلة التزوير غير المحترمة.

خرجا من المقهى. طلبت منه أن توصله إلى البيت بسيارتها فأبى.

- أصررت على الدفع في المقهى والآن تأبى الركوب. رجل شرقي أنت.

- بل رجل طنجاوي.

- تقتلني غيرة حبك لطنجة.

- تقتلني غيرتك من مدينة.

- المدينة أنثى. والأنثى تغار من كل ذات تاء تأنيثٍ تزاحمها في رجل..

- في كل الأحوال، أنا أقطن قريبا من هنا.. في حي إسبانيول.

- أعلم طبعا.

تواعدا بلقاء آخر. بدت له سيارتها رقيقة مثلها. ضغطت دواسة البنزين ولم تنس أن تلوّح له بكفها برقة مع ابتسامة مصنفة ضمن أسلحة الدمار الشامل.

عاد إلى شقته منهكا تماما. كم من المشاعر تتزاحم اليوم في فؤاده لم يعش مثلها منذ مدة. أيّ فوضى تخلقها الأنثى في الرجل؟! حتى شقته بدت له مختلفة تماما.

سقط كالمغشي عليه فوق سريره. قطته كأنما استشعرت أحاسيسه. تنظر إليه بعينها الواحدة في حنان مشوب بحذر. حملها بيده ووضعها عند قدمه. تكومت على نفسها وازدادت التصاقا به، بينما بقي هو يتأمل القمر الذي يحاول تفادي سحب عابرة.

-6-

طرقٌّ خفيف على الباب. ينهض خالد من سريره بين حلمٍ ويقظة. بقايا حلم لازالت تتابعه حتى الباب. يقف قليلا ليقاوم ترنحه. يعتدل ثم يمسّد شعره في حركة تلقائية لا تغير شيئا من حالته، ويفتح الباب.

- آه.. صباح الخير.. مرحبا «عـْــزيزة رحمة».. تفضلي.

- لا..لا وقت لدي يا ولدي.. لقد أعددت بعض «الحلوى د كيكس» واحتفظت لك بنصيبك.. أعرف أنك تستطيبها كثيرا.

- أوه! لا أدري كيف أشكرك.. لماذا هذا التعب؟

- لا تعب هناك يا ولدي.. أنت لا تدري أي أفضال لوالدتك عليّ وأي عِشرة ومودة كانت بيننا.. رحمها الله.. الطيبون يرحلون تباعاً.. أنت بعضٌ منها ومن الزمن الطيب..

- «الله يرحم الوالدين».. ألن تدخلي على الأقل لترتاحي من الطوابق الستة التي صعدتها للتوّ. أنت تلهثين..

- لا عليك.. لازال أمامي عمل آخر.. الطوابق التي ذكرتَ سأنظفها درجاتها كلّها بعد قليل.. فلا تقلق على جدّتك.. فقط، أنت حاول ألا تنهي الحلوى كلها هذا اليوم.. أعرف هوسَك بها!

- لا أستطيع أن أعدك بشيء.

تستدير رحمة في بطءِ امرأةٍ جاوزت السبعين وتلوح بكفها دون معنى. يتأملها هو في حزن مشوب بكبير مودّة. رحمة من القلائل - والقليلات - الذين لايزالون يقطنون بذات العمارة منذ عهد الاحتلال الإسباني لمدينة طنجة. عملت مع الإسبان آنذاك كحارسة للعمارة، وبقيت فيها تعتني بها وتراقب خلق الله وهم يجيئون ويروحون.

- أي تاريخ تحكيه تجاعيد وجهك يا «عزيزة رحمة»؟ يقول خالد لنفسه.

سكان الحي كلهم ينادونها «عزيزة رحمة». مع أنه لا حفيد لها، لكن الكلّ يعتبرها جدته. حتى القادمون الجدد يفعلون ذلك. إنها المرأة الطيبة القادمة من عالم طاهر يأبى أن يتلوث.

رسالة جديدة على بريده الإلكتروني:

" إلى الكاتب المحترم خالد.أ.

نشكر لك مساهمتك الأدبية القيمة معنا، ونرسل لك طيّه تفاصيل التحويل البنكي والذي قيمته 350 دولار، وذلك عن أربع قصص قصيرة كنت قد نشرتها بمجلتنا.

نشكركم مجددا، ودمنا على تواصل.

إدارة مجلة "المبدعون"

يقرأ خالد الرسالة الإلكترونية مرات ومرات ودقات قلبه تتسارع. ضاقت فلما استحكمت حلقاتها، جاءته رسالة البشرى تمشي على استحياء. أخيرا سيستطيع أن يتحرك بحرية من جديد، على الأقل لفترة. مذلة النهار وهمّ الليل سيرحلان.

هذه من الفوائد القليلة التي يجنيها من وراء عشقه للكتابة. لماذا نكتب؟ السؤال الكبير يجيب عنه هو، وهو يزدرد الحلوى: لكي تصلنا الدولارات المحترمة طبعا! ثم يضحك ملء فيه.

فتحت الرسالة شهيته للأكل، فالتهم طبق الحلوى مع كأس الشاي وهو يفكر أن عليه أن يذهب الآن للبنك ليتأكد أن الأموال قد حوّلت فعلا. تصفح أحد المواقع الإخبارية المحلية كعادته بسرعة فوقعت عيناه على خبر أثار استغرابه وغضبه:

"علم موقع "طنجة الآن" قبل قليل أن عصابة أجنبية استطاعت سرقة لوحة ثمينة تعرف ب "الموناليزا المغربية" من المتحف الأمريكي بالمدينة (المفوضية الأمريكية سابقا).

وقد ذكر مصدر أمني مطلع أن السرقة تمت بطريقة أفلام هوليود، حيث استعملت عصابة متنكرة مكونة من ثلاث أشخاص غازا مخدرا، قبل أن تسرق اللوحة وتغادر المكان بكل هدوء..

تفاصيل أخرى نوافيكم بها بعد حين..."

هذا ماكان ينقصك يا طنجة. أن يسرقوا بقايا بقايا جمالك. كان قد قرأ يوما أن هذه اللوحة هي لفتاة من طنجة إسمها «الزهرة»، ورسمها فنان اسكتلندي إسمه جيمس ماكباي سنة 1952. الزهرة - حسب قراءاته - لازالت حية لحد الآن وأحفادها يعيشون بالولايات المتحدة الأمريكية.

الحمد لله أنهم لم يؤذوا أحدا. قال هذا لنفسه هذا وهو يرتدي ثيابه استعداد للخروج، قبل أن يضرب على رأسه بقوة وكأنه تذكر شيئا..

- لم يؤذوا أحدا؟ يا إلهي، لقد نسيت تماما أن صديقي «المهدي» يعمل كحارس أمن خاص هناك.. أي فاقد للذاكرة أنا!!

حاول أن يتصل فأبى الهاتف إلا أن ينطفئ بسبب ضعف البطارية. فكر أنه فعلا فيلم هوليودي بالنسبة لكل الأطراف. وضع الهاتف في جيبه، ثم حمل طبق الحلوى الذي لم تعد فيه سوى النقوش التي تزينه، ليعيده لصاحبته، وهو يغمغم:

- قلت لك يا «عزيزة رحمة» أنني لا أستطيع أن أعدك بشيء.

نزل درجات الطوابق الست متجاهلا المصعد الذي يعمل مرّة كل 365 يوما. سلّم الصحن لرحمة التي وجدها تنظف درجات الطابق الثالث، فابتسمت ولم تعلق. تدعو معه بالتوفيق بينما هو يواصل نزوله السريع حتى غاب صوتها عن مسامعه تماما.

-7-

يلهث خالد وهو يسرع الخطى للوصول إلى المتحف الأمريكي. أسعده أن الخبر يفيدُ أنْ لا أحد تأذى مبدئيا، لكنه كان قلقا على صديقه. لا يخشى على صديقه من الأذى النفسي في الحقيقة، فهذا ترفٌ ليس من حقه. الأذى النفسي متروك لفئة أخرى من الناس. فئة تذهب إلى الطبيب بمجرد ما تشعر ببعض العياء. من اكتشافاته الجديدة أن هناك مرضا إسمه «لافاتيك». إن كان قد نجح في الترجمة فهم يقصدون «التعب».

التعبُ مرض.

المشيُ رياضة.

يالها من روعة! هو يعتبر المشيّ عملا يوميا لا يلتفت إليه، وهو بالنسبة للآخرين رياضة. لكلّ وجهة هو موليها.

فوجئ بالعدد الكبير من المحيطين بمكان الحادث. يعرف أن ثلاثة أرباعهم فضوليون ولا يهتمون إطلاقا بالحدث نفسه، سوى ما سيعودون به في جعبتهم كي يرووه لأصدقائهم وهم يجلسون في "رأس الدرب" عندما يدلهِمّ الليل. اخترق الجموع بصعوبة قبل أن يصل إلى حاجز أمني حديدي.

أوقفه رجل شرطة بيد حازمة صارمة. يمنع الدخول منعا باتّا. قال له هذا والتفت إلى زميله يواصل حديثا بُتر فجأة.

يرتكب المرء حماقات كثيرة في شبابه، من بين هذه الحماقات إصدار جريدة أدبية من مصروف جيبه. لكن.. في مواقف كهذه يتضح أن بعض الحماقات أفضل من بعض. بل إن بعضها يكون مفيدا جدا أحيانا. لذا أخرج خالد بطاقة الجريدة التي كان قد أصدرها ذات جنون، وأشهرها في وجه الشرطي.

- أنا صحافي، أريد أن آخذ بعض المعلومات المتعلقة بالحادث. لن أصوّر شيئا. فقط سأحاول معرفة تفاصيل الحادث.

بدت الحيرة على وجه رجل الأمن وهو يتأمل البطاقة. اقترب منه صديقه وهو يرسم على وجهه علامات الحكمة. داعب ذقنه وهو يتفحص البطاقات من وراء كتف رفيقه.

- هممم.. أنت مدير تحرير جريدة «ألف باء»؟!! لا بأس، دعه يمرّ.. لكن، أنت، لا تتأخر كثيرا بالداخل.

- لا إطلاقا، فقط سأنجز مهمتي وأرحل.. أنت تعرف أننا في «ألف باء» لا بد أن نكون سباقين إلى الخبر.

- هيه.. نعم نعم.. هيّا.

كادت تفلت منه ضحكة. يبدو أن حماقته كانت عاقلة تماما لأنه اختار اسما لا يوحي بطبيعة الجريدة الأدبية.. «ألف باء».. إسم أينما وضعته يأتي بخـــيْر.

واضعا جبينه بين سبابته وإبهامه كان يجلس «المهدي» والعياء واضح جدا على جسمه المتهالك فوق كرسي بلاستيكي. اقترب منه خالد ووضع يده على كتفه مواسيا.

يعلم أن الكلام في مثل هذه المواقف يكون أحيانا مجرّد عبء آخر يُضاف إلى المصيبة.. لذا ترك «المهدي» يأخذ المبادرة، وهو يجلس بجواره على الأرض..

- لماذا أتعبت نفسك وأتيت.. من السهولة أن تتورط في أي مصيبة في حدث كهذا أيها الأحمق؟

- لا مصيبة أعظم من تعرض صديق للخطر، بينما تبقى أنت جالسا تقرأ الخبر وتداعب أصابع قدميك وكأن الخبر لا يعنيك...

- ما أطيبك!

- يا خبيث.. طمئني عليك.. لم يتأذّ جسدك؟

- لا، إطلاقا.. أطلقوا غازا مخدرا بالكاد يُـــرى.. لم أشعر بنفسي إلا وهم ينعشونني. هناك بعض الدوار الآن فقط، لهذا لم يأخذوني إلى المصحة.

- هذا تطور خطير، جريمة منظمة في قلب طنجة.. ومن أجل لوحة فنيّة؟ يبدو هذا كواحد من أفلام الإثارة..

- كانوا ثلاثة أشخاص بمظهر سياح عاديين جدا.. يصعب جدا أن تشك في أمرهم.

شعر أن صديقه يشعر بتأنيب الضمير باعتباره حارس أمن المكان. قال له:

- لم يكن لأي شخص آخر أن يدرك نواياهم. أنت - وكل من هو مكانك - تحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر.

- هم ينتظرون مني أن أعرف حتى السرائر.

- حسنا.. أهم ما في الموضوع الآن أنك بخير.. سأتركك الآن وسأتصل بك فيما بعد. أعتقد أنه سيكون أمامك يوم طويل..

- بدون شك.. الكاميرات الموجودة ستحكي لهم كل شيء. لكنهم سيتلذذون بالتحقيق معي. أعرف هذا.

- لا عليك.. صبرا جميلا.

- هو ذاك.

غادر المكان وهو يتأمل الفوضى البشرية العارمة. سبق له أن زار هذا المكان يوما ويذكر وقتها أنه بقي لدقائق طويلة يحاول أن يفرّ من نظرات الزّهرة، أو زهرليزا (الموناليزا المغربية). كان يحاول أن يثبت أن هناك خللا في «موناليزيتها».

ذلك العناد الطفولي والرغبة في إثبات أن كل ما لدينا لا يساوي شيئا أمام ما يأتي من العالم الخارجي. كان هذا قبل أن تزيده سنوات العمر حكمة ويعرف أن ما لدى مدينته ووطنه من قيم وآثار وتقاليد، لو وُزّع على العالم لكفاه.

أخرج هاتفه من جيبه ليعرف الوقت فتذكر أن بطاريته قد فرغت. تذكر أيضا - فجأة - موعده الذي نسيه تماما مع هدى في مقهى «فيلا جوزفين» بمنطقة الجبل الكبير.

- ربّاه! كيف نسيت هذا.. !!

تذكر أن هدى طلبت منه أمس في حوار فيسبوكي سريع أن يكون لقاؤهما صباحيا بتلك المقهى كي يستمتعا بالنظر إلى طنجة وهي تتمطى وتنفض عنها غبار الكسل وبقايا قطر الندى.

اتفقا على أن تكون الحادية عشرة صباحا موعدهما. سأل أحد المارين عن الوقت فأجابه أنها الحادية عشرة وثلاثين دقيقة. لقد تجاوز الموعد بثلاثين دقيقة. شعر بكره شديد لنفسه. يكره هو أن يتركه أحدهم ينتظر حتى ولو كان صديقا، فما بالك بامرأة تنتظر رجلا تعرّفت عليه للتوّ؟!

استقل سيارة أجرة. استأذن السائق في منتصف الطريق كي يسحب أموالا من الشباك الأتوماتيكي. بعد خمسة عشر دقيقة كان قد وصل المقهى. قبل أن ينزل قال له سائق التاكسي:

- ألا تعتقد أنني على حق، وأنهم ظلموني؟!

آه!! إذن فقد كان السائق يتحدث طوال الطريق! كيف صُمّت أذناه عنه؟ لقد

كان جسده هناك، لكن روحه كانت تجالس هدى في المقهى معتذرة منها طالبة الانتظار لدقائق.

أجاب خالد:

- طبعا أنت على حقّ.. الناس أصبحوا وحوشا في هذه الأيام، لا يقدرون الطيبين أمثالك.

- بالضبط.. هذا ما أقوله لهم.

دخل المقهى. تفحص وجوه الجالسين في الشرفة.. لا أثر.

فعل نفس الشيء في الداخل .. لا أثـــر.

أين أنت يا هدى؟ أتراك تظنينني الآن واحدا من الذين يقولون ما لا يفعلون؟ أسوأ الناس طرّا المخلفون وعودهم. والآن أنا واحد منهم في نظرك. المصيبة أن هاتفك مقفل. أهي عقوبة؟!

كان قد التمس من نادل المقهى أن يشحن هاتفه المحمول ففعل.

يحاول الاتصال مرات ومرات دون جدوى.

جاء المساء بسرعة. استسلم الضياء لسلطة الليل البهيم. عاد هو إلى شقته وفتح حساب الفيسبوك منتظرا أن تظهر هدى في أية لحظة.

الفيسبوك خال مقفر كأرض شهدت نهاية حرب للتوّ. الرياح تصفّر في العالم الافتراضي الأزرق. رياح كئيبة.

يبدو أن ما كان يخشاه قد وقع.

هناك دائما أسوأ من الأسوأ...

أسوأ من عدم وجود علاقة.. علاقةٌ مبتورة.

أسوأ من الغياب.. غيابٌ لا تستطيع أن تُدرك صاحبه.

أسوأ من الوحدة.. أنيسٌ يغيب فجأة بسبب غير مفهوم.

يزفر زفرة مليئة بتعب النهار وحنقه وحزنه، ويتساءل: بالله عليك.. أين أنت يا هدى؟!!

-8-

(1)

«هؤلاء الرجال الوحيدون؟
من أين يأتون؟
وإلى أين ينتمون؟»

هائم على وجهه.. أشعث.. أغبر.. نحيف جدا.. ميت حي.. شبه رجل. لا هدف له إطلاقا. لا رغبة له في فعل أي شيء. يبحث ذات اليمين وذات الشمال، صعودا ونزولا، ركوبا ومشيا على الأقدام، عن شيء واحد فقط.

يكره نفسه. يكرهه الآخرون. هذا لا يهمه. لديه هدفه الأسمى الذي يعيش/يموت من أجله. يهرش جسده وهو يتمشى بشارع المكسيك بطنجة، حيث خفّت حركة المشاة والمتسوقين والمتسكعين أيضا مع اقتراب منتصف الليل. يأخذ نفسا عميقا من بين أسنانه التي يضغطها بقوة دون إرادة.

المال.. المال.. لا يريد غيره الآن. المال الوحيد الذي يستطيع أن يوقف هذا العذاب. بالمال يشتري «الغبرة» (الهيروين). وباستنشاق الغبرة ينتهي العذاب ويتوقف دمه عن طلبه المتزايد للمادة.

هاهي ذي الضحية المناسبة.. تتحدث في هاتفها بكل ثقة، وهي تهم بركوب سيارتها. هذه غِـــــرّة أخرى تتصرف وكأنها محاطة بكتيبة من رجال الأمن. يلتفت ذات اليمين وذات الشمال باحثا عن الفجوة. والفجوة كبيرة جدا في الحقيقة لأن المكان شبه خال. يحاول أن يتصرف بهدوء وبشكل طبيعي. هي تعطيه ظهرها وتواصل الحديث بعد أن اتكأت على باب السيارة المفتوح. أمامه ثوان لتنفيذ المهمة.

هوب!! الهاتف في يده وهي تمد يدها بحركة عفوية وكأنها تحاول استرجاعه بعد أن صعقتها المفاجأة. احتبست الكلمات في حلقها. هو يعلم أن الذين لم يتعودوا على هذه المصائب ولم يستعدوا لها تكون ردود فعلهم هكذا. الصمت.. الحزن.. ثم الدموع الحبيسة في المُـــقل. هي من هذا النوع كما خمّـــن.

بقيت تنظر إليه وهو يعدو متجها نحو دروب حي «المصلى» حيث يستحيل أن تتابعه بسيارتها..

المارّة؟ كانوا قلة.

بعضهم - ممن انتبهوا للأمر- ندّت منهم حركات خفيفة في محاولة لملاحقته، لكنه - وهو الخبير بهذه الأمور - كان يشهر في يده الأخرى سكينا مهنّدا.

اقتربوا مني وستنعمون بأولى لياليكم في المقابر. هكذا يقول لسان حاله.

هكذا، استطاع الظفر بغنيمة الليلة التي سيبيعها لأول مشترٍ بثمن بخس دراهم معدودة.

(2)

من قال أن الرسائل في بلجيكا تحمل الأخبار الجيدة؟ لا أحد. ولن يقولها أحد يوما. كلما وجدت مظروفا فاعلم أنه يحوي مصيبة من المصائب: ضريبة، إنذار، غرامة... عبد الحق تعوّد على هذا، لهذا لم يتفاجأ كثيرا عندما فتح المظروف ووجد رسالة هي عبارة عن تذكير أخير موجه لأخته من أجل أن تتوجه إلى المصالح المختصة في أقرب وقت من أجل تمديد أجازتها المرضية. وأقرب وقت كان - للأسف - هو الغد.

ولأنه تعوّد على هذه المفاجآت تصرف عبد الحق بسرعة. اتجه إلى جهاز الكمبيوتر وهو يدعو الله أن يجد تذكرة طائرة من طنجة إلى أي مطار قريب. الحقيقة أنه كان محظوظا. كان هناك مقعدان في رحلة السابعة صباحا من طنجة نحو مطار «شارل لوروا». لا بأس. سينتظرها هناك ثم ينقلها مباشرة إلى الإدارة المختصة كي تنهي معاملتها كي ينتهي هذا المشكل بسرعة.

قضى وقتا طويلا جدا في محاولة الاتصال بأخته قبل أن تجيبه أخيرا.

- مرحبا هدى، كيف حالك؟

- بخير.. أنتم بخير؟ ما سبب هذا الاتصال في هذا الوقت المتأخر.. أقلقتني.

- منذ منتصف النهار إلى الآن وأنا أحاول الاتصال بك.. لماذا لم تجيبي؟

- هاتفي مارس الهواية التي تعشقها كل الهواتف.. التحول إلى الوضع «الصامت» دون علمي..

- لا بأس.. لا بأس.. الحمد لله أنه اشتغل أخيرا.. وصلت اليوم رسالة من الإدارة المختصة بالمهاجرين تعلمك أن غدا هو آخر أجل من أجل تجديد أجازتك المرضية وإلا سيتم إلغاء التعويض..

- ماذا؟ بهذه البساطة؟؟

- ليس بهذه البساطة.. أكيد أرسلوا رسالة من قبل ضاعت في الطريق.. الرسالة الأخيرة كانت مضمونة.. أنت تعلمين أن سعاة البريد يهوون رمي الرسائل في البالوعات من حين لآخر.

- وما العمل في نظرك؟

- لقد تصرفت فعلا، وقمت بحجز طائرة لك غدا على الساعة السابعة صباحا.. سأنتظرك بمطار شارل لوروا لأنقلك إلى «أنتويرب» مباشرة كي ننتهي من هذه المشكلة.

- يا إلهي.. فاجأتني تماما..ســـــــ...

- هدى؟!!.... هدى؟!!... ماذا يحدث لديك؟

لم يعد يسمع سوى صوت لهاث ثم انقطع الخط. أهي مشكلة أخرى من مشكلة الهواتف الرائعة؟؟ لابأس... لقد أخبرها بالأهم.

(3)

تتجول هدى في شارع المكسيك باحثة عن الهدية المناسبة لخالد. خالد رجل غير نمطي، غير تقليدي، ومن الحمق إهداؤه هدية عادية. لهذا تبحث هي بشكل محموم عن هدية محددة.

بعد أن أنهكها البحث بشدة وجدت ضالتها. تضع الهدية في صندوق السيارة الخلفي، وتخرج هاتفها من حقيبة يدها لترى إن كان هناك أي جديد. لا تثق بالتكنولوجيا بشكل كامل، ولديها وسواس لا بأس به تجاه كل المخترعات الجديدة.

صدق ظنّـــها. الهاتف يوجد في الوضع الصامت، بل هناك من يرن الآن والرقم يدل على أن المتصل من بلجيكا. تجيب المتصل. تتحدث وهي تفتح باب السيارة. تواصل الحديث قبل أن تشعر بأن الهاتف لم يعد هناك قرب أذنها. هناك من خطفه. ومن خطفه يعدو وكأنه الجامايكي «بولت». والأدهى من هذا أن بيده سكينا يلوح بها أثناء عدوه.

تكتفي بالنظر إليه وهو يختفي تماما عن ناظرها.

تجلس في سيارتها شاعرة بالقهر. هذا هو حال المصائب.. لا تأتي إلا تباعا. حاولت أن تتجاوز الصدمة وهي تقود سيارتها نحو منزلها بحي البرانص. حسب ما أخبرها به أخوها.. فأول ما ينبغي أن تفعله هو أن تلغي موعدها مع خالد غدا في مقهى «فيلا جوزفين» وأن تودعه، ولو فيسبوكيا.

وصلت إلى منزلها وهمت بفتح الباب، لكن حارس الحيّ اقترب منها قائلا:

- آنسة هدى، أعتقد أن شركة الكهرباء قد قطعت التموين عن منزلك.

- ماذا؟ أنت لست جادا طبعا يا «السي عبد السلام»..

- الشيب لا يسمح لي بالمزاح يا ابنتي.. لقد حاولت أن أماطلهم أو أمنعهم فقالوا أن فواتير ستة أشهر لم تؤدّ بعد.

الدّوار.. الدّوار الشديد.. تمسك بمقبض الباب وتفكر في طريقة لإخبار خالد. لا حلول إطلاقا. مقاهي الإنترنت أقفلت. وإن كان هناك واحد فغالبا ستجد هناك من ينتظرها ليسرق منها شيئا آخر في هذا الوقت المتأخر.

يحدث هذا غالبا. هي تعتقد أن أخاها قد أدى الفواتير. أخوها يعتقد أن أباها قد أدى الفواتير. شركة الكهرباء تعتقد أنه عليهم أن يدفعوا أو تعلن عليهم حرب « الكهرباء مقابل المال». الحقيقة أن شركة الكهرباء هي الوحيدة التي لا «تعتقد» بل متأكدة.

فكرت في الذهاب إلى حي إسبانيول والبحث عن الشقة حيث يقطن. ستكون هدية رائعة لسكان الحي كي يلوكوا سيرته للأشهر القادمة. وربما لا يروقه الأمر إطلاقا، خصوصا أمام طبعه المتحفظ.

- اشتريت لك هذه الشمعات الأربع من باب الاحتياط.

تنتبه إلى أن «السي عبد السلام» لازال يقف بجوارها في نوع من التعاطف الصامت.

- شكرا لك «السي عبد السلام».. رجل شهم كما عهدتك.

- لا عليك.

تدخل المنزل وتشعل شمعة وهي تجمع على عجل حاجياتها في الحقيبة. تقرص لحمها كي تتأكد أنها لا تحلم. هل يعقل أن يحدث كل هذا بهذه السرعة؟

في المطار تحاول هدى أن تجد حلا من أجل إرسال رسالة فيسبوكية لكن جميع الخدمات تغط في نوم عميق. ليس هناك كمبيوتر عمومي للأسف. حتى الاتصال بخالد من هاتف عمومي غير ممكن لأنها لا تذكر رقمه.

لقد علمتها التكنولوجيا - كما علّمت جيلها - أنه لا حاجة للذاكرة إطلاقا. هناك من سيقوم بالمهمة نيابة عنك دائما فلا تبتئس وتوقف عن تشغيل خلايا مخك الرمادية. إنعم بالراحة ونحن نتكفل بكل شيء.

حسب برنامجها المفاجئ المكثّف، هي لن تستطيع التواصل مع خالد. إذن، إلا في المساء عندما تنهي مهمتها الإدارية.

تجلس هدى في مقعدها بالطائرة وتتأمل شاطئ طنجة الذهبي الطويل وهو يبتعد مودّعا، وتتساءل: ترى، ماذا ستظنّ بي يا خالد؟

-9-

صوت قطرة الماء إذ تهوي في سطل.. رسالة فيسبوكية جديدة..

يقفز خالد من مكانه إثر سماع الصوت فتطير القطة التي كانت مستكينة فوق حجره، وهي تحتجّ في مواء خفيض. أجهزة استشعارها - القادرة على الشعور بالزلزال قبل وقوعه - فشلت في استشعار مشاعر خالد الملتهبة التي تحوّلت إلى زلزال بشري بمجرد سماعه الصوت الفيسبوكي الذي بدا له الآن كواحدة من معزوفات «ريشارد كلايدرمان»..

- من أنت؟!

تصعقه الرسالة إذ يجد أنها من مراهق لازال يأمل أن يكون صاحب الحساب أنثى متنكرة في زيّ رجل. بإحباط ممتزج بالقسوة يمسحه تماما من قائمته. هذا ما كان ينقصه.

الانتظار.. الانتظار.. كم يكرهه. الموتُ دائما أفضل من انتظار الموت. قولي لي يا هدى أن كل شيء انتهى وسأبيتُ ليلتي راضيا عنك وعن نفسي. قولي لي أنك بخير وسأطرب لذلك. فقط اظهري. لا تنتهي هكذا فجأة كما بدأتِ. البدايات المفاجئة رائعة، لكن النهايات ليست كذلك.

لماذا جئتِ يا هدى إن كنت تنوين الذهاب بسرعة هكذا؟

تأخرتُ في الموعد؟ نعم فعلت. لكن، لو أصغيت لعذري لتفهّمتِ. ألم يقولوا قديما: التمس لأخيك ألف عذر، فإن نفذت، فابحث له عن العذر الواحد بعد الألف!

أفلتت منه ضحكة ساخرة دون أن يشعر. هاهو الآن، وهو الرجل الذي اعتقد أنّه قد بلغ أشدّه، يبدو كمراهق تركته حبيبته للتوّ لأنه لبس قميصا أزرق اللون بينما تامر حسني يلبس اللون الأحمر.

حاول أن يشغل عقله وقلبه بالتفكير في قضية سرقة لوحة زهرليزا. كان قد اتصل بصديقه «المهدي» في العصر واطمأن أنه فعلا بخير وأن التحقيقات الأولية مرت بسلام. قال له المهدي أنه مدينٌ لكاميرات المراقبة فقد كانت هي القول الفصل في الموضوع. لقد أظهرت حركاتِه العفوية التي شهدتْ له بالبراءة. على الأقل حتى حين.

الأمر، حسب المهدي، تم بسرعة هادئة. توزعت العصابة المكونة من ثلاثة أشخاص في أركان المتحف، ثم قام كل منهم بتسريب غاز مخدر بالكاد يرى، بحيث فقد جميع من في المتحف وعيهم إلاّ هم.

- وكيف لم يفقدوا هم الوعي؟

- أظهرت الكاميرات أنهم دسّوا في أنوفهم قطعا بلاستيكية صغيرة يبدو أنها قامت باللازم. الجريمة تتطور يا عزيزي، والأفلام وحدها ليست كافية لكي تصبح خبيرا في هذه الأمور.

- صحيح.. لكن قل لي.. أنا أعرف أن هناك لوحات أخرى في ذات المتحف للفنان «جيمس ماكباي».. لماذا لم يسرقوها؟

- ذات السؤال طرحناه وطرحه رجال الأمن.. وأولى الفرضيات ترجح أنهم جاؤوا بهدف محدّد واضح: لوحة زهرليزا.. ربما لقيمتها وأهميتها.. ربما لأن هناك من هو مهتمّ بها زيادة عن اللزوم ويريدها بأي ثمن من الأثمان.. فرضية أخرى تقول أنهم اختاروا أثمن ما في المتحف كي يستطيعوا تهريبه خارج البلاد بسهولة بمبدأ «ما خفّ وزنه وغلا ثمنه».

صوت القطرة مرة أخرى، يقطع حبل أفكاره..

هذه المرّة بدا في أذن خالد كصوت شتيمة. لم يلتفت. اللهفة المنتهية بإحباط تدمّر أعصابه تماما. بعد قليل، ينظر إلى المربع الأحمر الصغير المغري ويحاول، من مكانه في المطبخ، أن يعرف مَن المرسل دون حاجة للاقتراب من الجهاز. لا مزيد من الإحباطات. هذا شعار الليلة.

والشعارات هي أسهل شيء يمكن التخلي عنه طبعا. لهذا لم يطل المقام بخالد في المطبخ، فلم يشعر إلا وهو يقترب من الجهاز كي تتضح الرؤية ويعرف من المرسل...

- خـــــــــــــالد؟!!!

هيَ.. هيَ.. إنها هدى.. هدى تناديه.. لأول مرة يعرف أن إدارة فيسبوك أضافت خاصية « نقل المشاعر»! مشاعر هدى انتقلت إليه بكلمة واحدة... يتخيل هدى وهي تنطقها.. خـــــــالد؟!! ..بكل الحيرة.. بكل الخوف.. بكل الاعتذار.. بكل الاشتياق.. بكل الترقب.. بكل اللهفة..

بكل الحبّ ؟!!

هذا ما لم يجبه عنه الفيسبوك للأسف. والآن جاء وقته كي يرسل لها ردّه المحمّل بمشاعره هو.

- هــــــــدى؟!!!

أتراها وصلتها كما وصلته؟ أخرَجت كل مشاعره عبر العالم الأزرق كي تحتويها وتحتويها هيَ؟

شرحتْ له كل شيء. شرح لها. وعدته أنها ستعود في غضون أيام، ووعدها أنه سيكون من المنتظرين.

- ليل أنتويرب هادئ جدا يا خالد. اشتهيتُ لك جلسة في حضنه.

- وماذا أقول لطنجة؟!

- لن تغار هي لأنها تسكنك قبل أن تسكنها.. أنت لا تحبّ طنجة.. أنت طنجة.

- أجمل تعبير أسمعه عن حبّي لطنجة..

- هذه حقيقة.. الجميل فيها أنك صادق.. لست مدّعيا لأنه لا حاجة بك لذلك.

- اليوم سرقوا منها - من قلبي - قطعة ثمينة..

- ماذا تقصد؟

- سرقوا لوحة الموناليزا المغربية من المتحف الأمريكي...

- يا إلهي!! إلى هذا الحد تطورت الجريمة بالمغرب؟ وهل هناك موناليزا مغربية فعلا؟

- طبعا، والقليلون يعلمون بالأمر.. هي فتاة طنجاوية كانت تبلغ من العمر 15 سنة عندما رسمها فنان اسكتلندي اسمه «جيمس ماكباي» سنة 1952.. وجه الشبه بينها وبين الموناليزا أنها تتابعك بنظرها أينما ذهبت.. كما أن سمتها وطريقة جلستها تشبهان بشكل كبير تلك الخاصة بالموناليزا.. لذا أطلقوا عليها هذا الاسم.

- ياه! معلومات رائعة أسمعها لأول مرة.

- هذا جزء صغير جدا مما تزخر به هذه المجنونة طنجة..

- الحقيقة أنه خبر محزن..

- هو كذلك.. لا يخفّـفه سوى ظهورك بعد اختفاء..

- صحيح؟

- بلا شك.. لك شوقٌ لا أستطيع أن أخفيه.. أنت من النوع الذي يصعب أن نتجاوزه بسهولة. لديك بصمتك التي لا أجد لها وصفا لحد الآن.

- لا تحمّلني ما لا أطيق..

- تعلمين أنني صادق..

- أعلم..

يتواصل الحوار. يجنّ الليل. تغادر هدى الفيسبوك. يصبح العالم الأزرق أسوداً كليل طنجة. يتجه خالد إلى نافذته الأثيرة ويتخذ جلسته المعتادة في مواجهة أضواء الميناء بينما السماء تهدي أولى قطراتها الخريفية لأرض طنجة.

-10-

الهواء الصباحي البارد يداعب وجه خالد وهو يحاول ألا يسرع الخطى كي تستطيع هدى مجاراة مشيته. تتأبط ذراعه ببساطة وهي تتحدث. غابة الرميلات تبدو شبه خالية إلا من بعض المتريّضين وبعض الأسر الذين جاؤوا للإفطار هنا هروبا من إفطار روتينيّ بين أربعة جدران.

- تعرفين هذا القصر؟

- أعتقد أنني شاهدت صوره يوما، لكنني لأول مرة أجدُني أمامه.. يبدو مهيبا!

- هو كذلك.. لقد شهد أحداثا يشيب لهولها الولدان.. اسمه قصر برديكاريس..

- آه.. هذا هو قصر برديكاريس إذن؟! سمعت عنه الكثير.. لكنني لا أعرف قصته بالضبط.

- مستعدّة لسماع قصته باختصار مخلّ؟

تتخذ هدى، ببساطة غير مفتعلة، مجلسا فوق جذع شجرة وتغمض عينيها تاركة لنسيم الغابة والبحر مداعبة وجهها لفترة.

- الحقيقة أنني كنت قد اخترت شعبة التاريخ بإحدى جامعات بروكسيل، قبل أن أغير الوجهة نحو الأدب الإنجليزي بعد أن قتلني التاريخ مللا.

- الأدب الإنجليزي؟ وكيف يتفق هذا مع عشقك للعربية الفصحى؟

- والدي لعب دورا كبيرا في هذا.. كان يخشى علينا كثيرا من الانصهار الكامل في المجتمع البلجيكي لذا - على الرغم من ولادتي ببلجيكا - كانت طريقة حياتنا مغربية بكل المقاييس.. تربية وتعليما. لا أستطيع أن أدعي أنني مغرمة بطنجة مثلك.. لكنني عندما أُسأل عن أصلي أجيب أنني طنجاوية! لعلّك لمست أنني لا أحاول أن أرطن بأية لغة أو لهجة أخرى غير لغتي ولهجتي.

- هذا ما يروقني فيك بشدة بصراحة، أنت بهذا تتفوقين حتى على بعض أصحاب الأرض الذين يلوون ألسنتهم محاولين أن يثبتوا أن لغتهم العربية «كليلة».. يقصدون «قليلة» طبعا..

- مساكين والله.. الشفقة فقط.. هذا ما أحتفظ لهم به.

- أضيفيني إلى قائمة المشفقين معك..

يجلس خالد إلى جذع مجاور، وهو يداعب التراب المبلل بقطر الندى بغصنٍ.. تقترب هرّة منه وتتمسح بقدمه.. يمشط وبرها بأطراف أصابعه ..

- تعشق القطط؟

- جدا.. هي الوحيدة التي بقيت وفية لهذا المكان.. يقولون أنها أشباح على شكل قطط!

- لا تثر رعبي!

- لا عليك.. أعتقد أن الأشباح لديها أمور أخرى مهمة تفعلها غير التجول قرب قصر برديكاريس.

- ..الذي لم تحك لي قصته بالمناسبة..

- قلت أنك تكرهين التاريخ..

- ليس عندما يكون عن طنجة.. وليس عندما تحكيه أنت..

يواجهها بنظره فتشيح هدى بوجهها متظاهرة بملاعبة القطة أيضا. لاحظ خالد أن عيونهما لم تلتقيا لحدّ الآن لمدة تتجاوز الثواني. تجاهل هذا وهو يقول:

- تبدأ حكاية القصر عندما يعِـدُ الثري «إيون برديكاريس»، اليوناني الأصل الأمريكي الجنسية، زوجته بأن يبني لها «أجمل قصر في أجمل مكان في العالم».. طبعا، لم يجد الرجل أفضل من هذا المكان. يقولون أنه كان قنصلا للولايات المتحدة الأمريكية بطنجة آنذاك. هذا قبل أن تحدث الفاجعة التي زادت من رهبة وأهمية القصر...

- هه.. أيّة فاجعة؟!

- اختطف المقاوم الجبلي «مولاي أحمد الريسوني»، زوجة وابن برديكاريس طالبا فدية كبيرة.. البعض يقول أن الريسوني كان بطلا مناضلا.. الآخرون يعتبرونه مجرما.. لكن المهمّ أنه ترك بصمة كبيرة جدا في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية نفسها، قامت هوليوود بتخليدها عن طريق فيلم بعنوان «الريح والأسد» قام ببطولته الممثل الشهير «شين كونري».. ذلك أن "الفرقاطات" الأمريكية التي أرسلها «روزفلت» - الرئيس الأمريكي آنذاك - لم تجد فتيلا مع الريسوني الذي سخر منها، وطلب منه أن يصعد بها الجبال وراءه إن استطاع إلى ذلك سبيلا..

- يا الله!! كل هذا حدث هنا؟ أنت تثير حماستي فعلا.. لا أكاد أصدق..

- صدقيني.. هذا جزء صغير جدا من تاريخ هذه المدينة التي لو تحدثت لصمت العالم مصغيا..

- وهل أعاد الريسوني المخطوفيْن؟

- نعم فعل.. طبعا بعد أن حصل على فديته، وبعد أن أعجبت به زوجة برديكاريس حسب بعض الروايات.. ولم ينس أن يرسل رسالة أخيرة لروزفلت يقول له فيها «لأنني أسد، فإنني سأبقى في مكاني.. بينما أنت كالريح، من السهل أن تغادر من مكان إلى مكان».. وهذا هو المقطع الذي ختم به الفيلم الذي صور هذه الواقعة..

- وهل يمكن أن ندخل إلى هذا القصر؟

لم يقل خالد شيئا بل نهض من مكانه مشيرا لها أنْ تعالي. تبعته هدى. دخلا حديقة القصر التي أصبحت جدباء تماما. اقترب خالد من حارس المكان وقال له شيئا وهو يدس في يده ورقة نقدية. ابتسم الحارس وفتح لهما الباب ثم ابتعد..

انقطع الكلام بين الاثنين تماما. من غرفة إلى غرفة كانت أنفاسهما تنحبس. يفكر خالد في الكلام لكنه لايجد له أي معنى.. يصعدان الدرج الأثري، ويدخلان شرفة الطابق الأول.. يتألق سطح البحر تحت ضوء الشمس ومن ورائه تظهر شواطئ إسبانيا وكأنها على مرمى حجر. يتكئان على حاجز الشرفة. يفكر خالد أنه من السهل أن تشعر بالحبّ في مكان كهذا، حتى لو كنت وحيدا، فما بالك ومعك فتاة كهدى. هدى منبهرة تماما وهي تمرر كفها على حافة الشرفة..

- ما رأيك؟

- ششششش....

يغلـــّـــفهما الصمت من جديد.

صوت الغابة.. صوت البحر.. صوت القلبين. أصوات صامتة كثيرة جدا تخيم على المكان.. يغادران القصر وهما يلتقطان أنفاسهما وكأنهما انتهيا من مشوار عدو طويل..

ظل الصمت يتسيّدهما حتى غادرا الغابة تماما وتوقفا قرب سيارتها.

- أعتقد أنك منحتني أفضل صباح تحلم به فتاة.. لذا ستسمح لي أن أمنحك هدية أقل من متواضعة كنت قد اشتريتها لك لأمنحك إياها في موعدنا الذي كان مقررا في «فيلا جوزفين»..

لم يقل خالد شيئا. الرفض قلة أدب. الموافقة لهفة. الصمت هو الحل الوحيد. تركها تفتح صندوق سيارتها الخلفي وتشير إليه أن يقترب..

- حقيبة سفر؟!!

- هي كذلك.. ما الذي قد يليق برجل يعشق طنجة ويعشق السفر إلا حقيبة سفر مضمّخة بعطر أنثوي ؟

نظر إليها بامتنان حنون. هذه المواقف تصيبه في الصميم، و لا يعرف ماذا يمكن أن يقدم أو يؤخر. أنقذته هدى من حرجه وهي تقول..

أعرف أنك عاشق للسفر كما كنت تكتب على فيسبوكك.. شاهدت صورك في مدينتي حماة السورية والقاهرة.. راقني أنك كتبت يوما « ما الذي قد يزيد حبنا لطنجة سوى فراقنا لها؟»... هذا مفهوم جديد للحب أسمعه لأول مرة.. الاشتياق ملح الحبّ فعلا..

توصل هدى خالد بسيارتها إلى حدود الحي الإسباني حيث يقطن. يتوادعان. تقول هدى:

- لم أخبرك بأهم شيء يا خالد.

- وهو ....

- دع الفيسبوك يجمعنا هذا المساء وستعرف المفاجأة التي أخبّـــأها لك.

- خبيثة لكنك رائعة..!

- ذكي لكنك تتغافل..!

- اعتن بنفسك.

- أنت أيضا.. إلى القاء.

-11-

- دعوة للسفر إلى أنتويرب؟!

يسأل منير خالد وهو يجاهد كي تبقى لقمة الخبز المغموسة في أكلة «البيصار» بين شدقيه..

- نعم يا صديقي.. أنا أيضا تفاجأت تماما عندما أخبرتني هدى أمس عبر الفيسبوك. قالت إنها ستتوصل اليوم أو غدا بدعوة، باسمي، من إحدى الجمعيات المعترف بها من وزارة الثقافة هناك.. الدعوة - والعهدة على هدى - تشير إلى أن الجمعية تتحمل مصاريف السفر والإقامة...

- نعمَ المفاجآت هذه..كم أنت محظوظ ، مع أنك لا تكفّ تلعن الكتابة لأنها لم تعطك شيئا وتنسى أنك سافرت بسببها أكثر من مرة..

- هذه المرة الوضع مختلف يا منير.. لم يسبق لي أن سافرت إلى أوروبا، وأنت تعرف أن الحصول على تأشيرة بلجيكا يقتضي منك تعبا كثيرا لا أحبّه ولا أطيقه..

- **آآآرا واحد الزلافة د البيصار ن هاد الرّاجل الكبير...**

يقاطعهما الصوت الممطوط المرتفع لنادل المطعم وهو يمر أمامهما مستعرضا طلبات الزبائن. بضع غيوم سوداء تلوح في الأفق تنذر بجوّ ممطر.

سوق «كاساباراطا» غاصّ بالحياة. المطعم ممتلئ عن آخره بتجار السوق وعمّال أتوا من أقاصي المدينة لينعموا بإفطار تمتزج فيه أكلة البيصار الشعبية بكأس الشاي المنعنع. هنا يشعر خالد أنه في بيئته التي يرتاح لها..

يعشق البساطة حتى النخاع..

البسطاء، أيّا ماكانت مساوئهم، صادقون ويتصرفون بالسليقة.

مع هدى كان يختلف الأمر لأنه لا يستطيع أن يدعوها طبعا إلى مقهى أو مطعم شعبي، فقبل أن يكمل جلسته معها ستكون النظرات قد التهِمتها وانتهى الأمر. وربما يخضع للتحقيق باعتباره «آخر شخص رأى المرحومة الملتهِمة!»..

ميزانيته تتضاءل تدريجيا، لكنه مرغم على دعوتها لأماكن خاصة جدا، كي تكون وحدَها شغله الشاغل.. ولكي لا ينشغل بمطاردة النظرات الفضولية..

- ..ولديك بطاقة اتحاد كتاب المغرب.. أعتقد أن الأمور لن تكون بتلك الصعوبة.

يستيقظ من شروده منتبها إلى أن منير كان لازال يواصل حديثا بدأه، فيجيب:

- إيه.. نعم.. عندما تتكفل الجهة الداعية بكل شيء تكون الأمور سهلة. هذا ما قالوه لي.. لكنني ما زلت أعتبر الوقوف في طابور طويل من أجل تأشيرة أمرا مذلا.. الخروج من طنجة عذاب في حدّ ذاته.. وهاهم يريدون تأشيرة كي يتركوني أغادر حبيبتي.. كأنني أفعل ذلك والسعادة تغمرني.. المفروض أن يطلب من يريد زيارة طنجة التأشيرة وليس العكس، ولو أن طنجة نفسها لن ترضى هذا لأنها احتضنت الجميع منذ بدء التاريخ ولم تلفظ أحدا يوما.

- تشبثك بطنجة غريب يا خالد.. الأمر يشبه أن تتشبث بقطعة خشب عائمة لمجرّد أنها جميلة وتترك السفينة التي تنتظر إنقاذك..

- وهل أنا أغرق؟

- تقريبا يا خالد.. الأيام تمضي.. المستقبل هنا غامض ضبابي كما ترى، وأنت تحاول أن تلعب دور فارس يحارب طواحين الهواء.. أنت لن تعيش على المكافآت التي تنالها مقابل كتاباتك.. هذه فرصة حقيقية لك. أشعر أن هدى لن تتركك تعود..

- وكيف ستفعل ذلك أيها المحقق «كولومبو»؟

- لن تفعل شيئا. هي تنتظرك أنت أن تبادر.. مهما كانت جرأتها فهناك حدود ستقف عندها.. خصوصا أنك تصف نشأتها بالمغربية الأصيلة. هذه فرصتك الذهبية كي تطلب منها الزواج وتقيم هناك إلى الأبد..

- لا أعتقد أن هدى تفكر بهذا الشكل السطحي..

- لا أعتقد أنني رأيت أجبن منك..

- لا تنس أن أشجع الشجعان عبر التاريخ هم مجرد أشخاص خافوا أن يصفهم الآخرون بالجبناء.. وأنا لا أريد أن أكون منهم. قمة الشجاعة أن تعترف أحيانا بجبنك..

- فلسفة فارغة تبرر بها ترددك..

يغادر خالد وصديقه المطعم. منير يمسح على بطنه وهو يتلمظ. يوصل خالد بسيارته إلى بيته.

- متى تغيّر هذه المصيبة التي تركبها بأخرى تستحق إسم «سيارة»..

- لو قلت هذا قبل أن تركب لأجبتك.. الآن وقد أكلت الغلّة.. إلعن الملّة براحتك..

- بالتوفيق.

- اعتن بنفسك.

يدخل خالد إلى العمارة. العجوز رحمة تواصل العناية بالعمارة بإصرار لا محيد عنه. يقبّـــل يدها ويسألها عن أحوالها فتجيب أنها بخير.

ومتى كانت إجابتها غير «الحمد لله»؟ لا يذكر أن هذا حدث يوما.

يقلب شقته الصغيرة رأسا على عقب بحثا عن الوثائق التي يحتاجها لطلب التأشيرة. معركة طويلة ممزوجة بلهاث وعرق وغبار وتعب استمرت لساعة تقريبا قبل أن يستطيع خالد الانتهاء منها.

أخيرا، لديه كل ما يلزم لتقديم طلبه. الحقيقة أنه كان مبالِـــــغا عندما تحدث لمنير عن الطوابير. الأمور تطورت وكل شيء يتم تقريبا عبر الشبكة العنكبوتية إلا مرحلة أو مرحلتين.

هدى قالت له أن صاحبة جمعية «أدباء من كل مكان» صديقتها، وهي التي طلبت منها أن تقوم بدعوته باعتباره قام بترجمة رواية «لوأوغلا» للكاتب الفرنسي«جاي دي موبسان» إلى العربية، والذي ستكون محاور الملتقى حول أعماله.

اتصال هاتفي بالقنصلية البلجيكية لتحديد موعد خاصّ باعتباره ملزما بتاريخ الملتقى، ورقة حساب بنكي والدعوة التي ستجلبها هدى. هذا كل ما ينقصه الآن لتقديم طلب التأشيرة.

يشعر بإثارة كبيرة رغم تردده المبدئي. بينه وبين نفسه يعرف أن منير كان صادقا. إن كان من شيء جناه من الكتابة فهو بضع مكافآت مالية وأسفار. لا بد من مؤتمر أو ملتقى أدبي هنا أو هناك من حين لآخر يعتقد أنه جدير بحضوره فيبعث له الدعوة. القاهرة، الاسكندرية، حماة.. والآن هو على موعد مع أنتويرب ومع هدى، إن لم يكن للقنصلية البلجيكية رأي آخر.

-12-

عملية ضخ الأموال في الحساب البنكي كانت صعبة ومرهقة. كان مضطرا للاستدانة من كل من يعرفهم. بعضهم رفض بأدب. بعضهم بوقاحة. في الأخير وجد أن الذين وافقوا هم نفس الأشخاص الذين يلجأ إليهم كلما واجهته صعوبات مادية، وكثيرا ما يحدث هذا. أصدقاؤه وبعض الذين يثقون فيه يعرفون أنه ولا بد رادٌّ الديون إليهم. فقط هي مسألة وقت.. مسألة ظروف.. هؤلاء يزيحون كل الغشاوة.. كل الأغلفة.. فيروْن معدنه الأصيل لا زال يبرق هناك.

الغريب أن جلّ من وقف إلى جانبهم يوما تنكروا له. الحقيقة أن هذا ليس غريبا.. بل هذا بالضبط ما كان يتوقعه. من قال أن الناس طبعُهم الوفاء؟! لا يخشى شيئا في كل هذه الأحداث سوى أن تحوّله هو الآخر من بشرٍ يسعى إلى حيوان يدبّ.

إن استمر الحال هكذا سيكون مضطرا للتحول إلى وحش هو الآخر مثل الكثيرين. لكنه عندما يهدأ يتراجع. لو نجحت ظروف الحياة في تغييره فهذا سيجعل كل مبادئه مجرد فقاعات هواء كان يختبئ خلفها ويحتمي بها. المبادئ لا تتزحزح بمجرد ظروف عابرة. هكذا فكر.

أخيرا استطاع أن يجمع رصيدا لا بأس به.

لم يكن يتصور أن الحصول على تأشيرة سيتم بتلك السهولة لكنه حدث. أحيانا تكون كل الصعوبة في الفعل ذاته. بينما النتائج - على العكس - تكون سهلة ميسرة لدرجة أنها تفاجئنا نحن الذين كنا نرتعش من احتمال الفشل.

اتصلوا به من القنصلية طالبين منه أن يكون هناك في حدود الواحدة زوالا. وجد مجموعة من الأشخاص ينتظرون حكم الإعدام أو البراءة. تتم المناداة على الأسماء...

أنت... ستغادر السجن..

أنت.. ستبقى في ضيافتنا قليلا...

هكذا بالضبط بدا له الأمر. بل إن ردود فعل المرشحين للحصول على التأشيرة كانت توحي له أن الأمر أكبر من ذلك أحيانا. بعضهم ينهار تماما وترى تلك النظرة المرعبة المرتعبة في عينيه والتي تقول: انتحاري مسألة وقت!

جاء دور الوجدان الجمعي، وأصبح هو أيضا مرعوبا من رفض طلبه وبدأت كفه اليسرى في الارتعاش كعادتها كلما توتّـر.

جاء دوره. منحته موظفةٌ جواز سفره المختوم بالتأشيرة مع ابتسامة لطيفة. بادلها الابتسام محاولا أن يرسم أمارات الثقة على وجهه الذي يخشى أن يفضح رعبه.

انتهى كل شيء كما بدأ فجأة.. عاصفة من الأحداث والأحاسيس والمشاعر انتهت به بوضع جواز سفره المؤشّــر في جيب معطفه.

اتصل بهدى، التي كانت قد سبقته إلى بلجيكا، ليزف إليها البشرى. يتخيلها تضحك بطريقتها التي ترجع فيها رأسها إلى الوراء. تبارك له وتقول له أنها في الانتظار.

- لم أشك للحظة في هذا.. إياك أن تتأخر.. عجّل بحجز أول تذكرة إلى مطار «زافنطم» أو «شارل لوروا».. وأينما حللت سأحضر لأقلّك إلى إقامتك التي خصصتها لك الجمعية..

أخبر العجوز «رحمة» بالأمر فأصرت على أن تجمع حاجياته في حقيبة السفر الضخمة التي أهدته إياها هدى. الحقيقة أنه كان محتاجا لهذا بشدة. هو فاشل تماما في مثل هذه الأمور. في أحسن الأحوال كان سيكوّر كل ما يوجد في دولاب الملابس محاولا أن يتظاهر أنه يطويها..

- الله يعطيك الخير يا «عزيزة رحمة»...

- آمين.. أعرفكم يا أولاد اليوم.. في الغالب كنت ستضع كل الملابس هنا دفعة واحدة لتجدها هناك وقد أصبحت كالعجين..

- أنت تقرئين الأفكار يا عزيزة..

- إيه.. هذا ما أنتم فالحون فيه.. الكلام الفارغ..

- حسنا سأخرج لقضاء بعض الحاجات. أقفلي الباب واحتفظي بالمفتاح عندك حتى أعود..

- وفقك الله وحفظك يا ولدي..

يقبّل رأسها ويخرج متحاملا على نفسه كي لا ترى رحمة دمعته. هو يحبّ هذه المرأة ولا شك. أبوه.. أمّه.. جدّه.. جدّته.. يبدو وكأنها أخذت نصيبا من كلّ واحد منهم، لذا يغيب ذلك الشعور بالحرمان كلما تحدث معها.

زار بعض أقربائه الذين لم يراهم منذ مدّة.. عمّه.. خالته.. عمتاه.. أسعدتهم الزيارة. يعترف لنفسه أنه كان مقصرا جدا في زياراته لهم. لديهم جميعا أطفال صغار، وهؤلاء ينتظرون طبعا المفاجآت التي يحملها معه «عمو خالد».. و«عمو خالد» كان مفلسا للأسف.. ويكره أن يرى تلك النظرة المحبطة في عيون الأطفال إذ يكتشفون أن عمهم خالد جاء غير محمّل بالحلوى أو اللـــّــعب..

هذه المرة استخرج من ميزانية السفر مصروفا خاصا بهذه العملية. تقول له خالته:

- لماذا ستسافر يا ولدي.. أنت صحافي والناس يحترمونك هنا.. ماذا ستفعل في بلاد الغربة..

آه لو علمت الحقيقة يا خالتي.. لبكيت كثيرا ولضحكت قليلا. يفكر خالد.

- الحقيقة أنني سأعود في غضون أسابيع.. إلا إذا حدث طارئ..

- إياك أن تتزوج من هناك.. البنات هناك لديهن حقوق تفوق حقوق الرجال هنا.. ستفقد كل مروءتك..

يضحك دون أن يجيبها. هذا الجيل القديم خطير جدا. كأنهم جميعا يقرؤون أفكاره. يتحدثون عن الأمور ببساطة تبدو ساذجة، فإذا بهم يصيبون كبد الحقائق. لله درهم.

عندما ودع العجوز رحمة لم يتمالك نفسه وأجهش ببكاء صامت. رحمة كانت تبكي أيضا، بصوت مختنق قالت له:

- إحذر السهر والنساء يا ولدي..

- هكذا لن يعود لسفري معنى يا عزيزة رحمة..

تضربه على كتفه وهي تضحك باكية:

- أيها الخبيث.. حفظك الله من كل مكروه.

- آمين.

المهدي ومنير يرافقانه إلى مطار ابن بطوطة. يترك حقيبته تعبر جهاز الماسح الضوئي في مدخل المطار، بينما منير يمازحه:

- لا تكذب.. كم كيلو حشيش لديك في الحقيبة..

- الحقيقة أن الحشيش لا يأتي بمال كثير، لذا ارتأيت أن أجرّب الهيروين هذه المرة..

تعبر الحقيبة، فيهمّ بحملها قبل أن يستوقفه صوت رجل الأمن :

- أنت.. نعم أنت.. إذا سمحت.. إيـــتِني بحقيبتك..

يحمل حقيبته ويضعها أمام رجل الأمن الذي يأمره بفتحها، بينما يسأله هو بصوت حاول ما أمكن أن يخفي فيه نبرة التوتّـــــر:

- ما المشكلة بالضبط؟؟

-13-

ابتسامة للبيع.. هكذا بدت له ابتسامة مضيفة الطائرة وهي ترحب به بحرارة باردة على باب الطائرة. كم تساوي ابتسامتها؟ تساءل. المشكلة أنها حنّطت ابتسامتها على شفتيها حتى غدت تبدو كتكشيرة.

هي تبيع ابتسامتها وهو يبيع قصصه. لا فرق. الكل يبيع ما يملك في هذا الزمن.. وكل شيء قابل للبيع.. إبداعات.. ابتسامات.. أجساد..

الحقيقة أن خالد لم يبذل جهدا ليبادلها الابتسام لأنه فعلا كان لازال يغالب ابتسامةً أصرّت على مرافقته حتى جلوسه على مقعده في الطائرة.

لقد ظل المهدي ومنير يمازحانه حتى آخر لحظة عناق. يقول له منير:

- ألا تخجل يا خالد؟ تهرّب علب شكولاطة من نوع «ماروخا»؟

- وجهوا سؤالكم لصديقنا «معاد». فهو الذي لا يخجل.. لقد طلب مني أن أحضر له عشرَ علب كاملة من هذا النوع الذي يهرّب من مدينة سبتة نحو طنجة.. لا أفهم كيف أن شخصا قضى سنوات طوال بإسبانيا، ثم هاجر بسبب الأزمة نحو بلجيكا، لازال يحنّ إلى شكولاطة مهرّبة!

- الحقيقة أن طعمها مميز جدا.. لن يفهم هذا إلا طنجاوي..

- صدقت..

- المصيبة أن شكلها فعلا يبدو فعلا كمكعبات الحشيش.. لقد اعتقد رجل أمن المطار أنه ظفر بغنيمة.

- هيا.. اجعلا منها حكاية أيها المتخلّـفان.. سأعود من سفري وأنتما لازلتما تقصّان ما حدث لبعضكما البعض وكأنه حدث للتـــّــو..

- لك أن تراهن على ذلك..

يدير خالد وجهه ليواجه النافذة محاولا تجنب الضجيج الكبير الذي يحدثه المسافرون. كان هناك الكثير من الدّوس على الأقدام واللعاب المتطاير، وبضع مشاجرات هنا وهناك من باب التسلية وتكملة المشهد.

في الأخير أقلعت الطائرة وقد أنهك الجميع بعد أن أدّوا واجبهم السّــفري.

السفر قطعة من الجحيم.. سواء كان في طائرة أو صاروخ أو حتى كان انتقالا آنيا كالذي قام به الذي عنده علمٌ من الكتاب.

السفر هو السفر.. قلقٌ.. اكتئابٌ.. اضطراب في المعدة .. نسيان جواز السفر أو تذكرة الطائرة.. ولا بأس بقطعة شكولاطة بالحقيبة تبدو كقطعة حشيش كي تصبح الأمور مثيرة للبهجة أكثر!

المطرب الجبلي «حاجي السريفي» يصدح في سماعتي أذنيه بأغانٍ جبلية تزيد من لوعة الفراق..

« لحبيبة يا طنجة..
كانشوفك كا نتفاجا.. وتا حبيبي هاهو جا...
لحبيبة يا طنجة»

طنجة تلوّح له وفي عينيها نظرة شوق وعتاب وتساؤل:

- ستعود أيها العاشق؟

- ليس قبل أن أعرف إن كنت تبادلينني حبّا بحبّ..

- حبّك لي هو نفسه حبّي لك..

- كيف؟

- عشاقي كُــــثر.. لذا، فعليك أن تكتفي بحبّك للحبّ الذي تحبّه لي..

- تناورين يا طنجة..

- ما الذي يجعل الحبّ جميلا غير العذاب الذي يرافقه؟

- لست ماسوشيا لتقولي لي ذلك..

- من وما أدراك؟

- أعرف نفسي.. وأعرف أكثر أنني أحبّك هكذا بلا شروط.. حبّي لك ليس تقمصا لدور ما.. ليس افتعالا.. حبّي لك أمر واقع محسوم ولا يد لي فيه إطلاقا.. لذا أستسلم في كل مرة أحاورك فيها..

- هناك أخرى؟

- تغارين؟

- ليس تماما.. مكاني في قلبك محجوز ولا تزاحمه أخرى.. قد تجاوره نعم لكنها لا تزاحمه..

- صدقت طنجتي..

- اعتني بنفسك..

- أحبّك..

- ....

في مقلتيه دمع. أضواء طنجة تبتعد تدريجيا.

لماذا كلّما غادرها شعر أنها حزينة فعلا.. جبالها.. بحرها..هواؤها.. كلهم مثقلون بحزن جميل.. حزن يعد بلقاء آتٍ حتما.

عندما نزل من الطائرة شعر ببرد قارس يلفح وجهه. محظوظ لأنه استعد للأمر بجبال من الثياب بعضها فوق بعض.. هدى تقف هناك، في بهو مطار «شارل لوروا»، بملابس شتوية هي أيضا زادتها ألقا وجمالا.

ترحب به بحرارة. يقول لها:

- زادتك اللمسة الأنتويربية حُسنا..

- أغزلٌ هو؟ لو كنت أعلم أن أنتويرب ستزيد جرأتك لدعوتك منذ أول يـــوم..

- مادامت القيامة لم تقم فأمامك الفرصة لتكرري الدعوة دائما..

تبتسم وهي تساعده في وضع حقيبته في سيارتها. لاحظ أن سيارتها تشبه تلك السيارة التي كانت تكتريها في طنجة..

الطريق إلى أنتويرب استمرت ساعة ونصف تقريبا. سألته هدى عن أحواله وعن جديده، فحكى لها ما حدث بالمطار.

- يا إلهي.. رغم أن كل شيء مرّ بسلام كما تقول إلا أنني أشعر بالرّعب متخيّلة ردة فعلي لو كنت مكانك..

- لا أعتقد أنه كان سيشكّ لحظة في هذه الرّقة المجسّدة..

- لا تنس أن بعض الأفاعي جميلة جدّا، بينما لو لمستها لقتلتك لدغتها..

- غاب عني هذا.. وقل ربّ زدني علما.

كانا، الآن، قد دخلا مدينة أنتويرب. بدت له هادئة جدا. يعشق الطراز الأوروبي في البناء.. المباني الصغيرة المتلاصقة..الممرات المصنوعة من حجارة مرصوصة.. الشوارع المضاءة كلها دون استثناء حتى الجانبية منها..

- ياله من هدوء يصيب بالصّمـــم..

- لا يتغير الأمر كثيرا حتى في النهار.. إلا في الشوارع الرئيسية..

- روعة.. سبعة أيام هنا كافية لكتابة رواية إذن؟

- سيكون لديك فعلا وقت فراغ كافٍ لذلك..

لم يجبها.. شعر أن في الجملة إساءة ما. المفروض أن تحتفي به في وقت فراغه لا أن تتركه يكتب رواية!

حاول التغاضي عن الأمر وهو يصعد ببصره في تلك البناية التي توقفا بقربها. نفس الطراز الذي يروقه.. عدد طوابقها لا يتجاوز الأربعة.

الشقة صغيرة لكنها جميلة وتُؤلف بسرعة. قالت له هدى:

- هذا هو مفتاح الشقة. استأذنت رئيسة الجمعية بأخذه منها لأحظى بشرف إيصالك إلى هنا بنفسي.. باقي المحاضرين بالملتقى يقيمون هم أيضا هنا معك بالشقق المجاورة.. قاعة الندوات ليست بعيدة عن هنا.. خمس دقائق سيرا على الأقدام.. غدا صباحا أطلعك على خريطة المكان.. والآن، إرتحْ من وعثاء السفر.. عمت مساءً..

كانت تتحدث وكأنها ترغب في الانتهاء ممّا ستقوله بسرعة..

أخشِيتُ من وجودها معه في شقة واحدة؟ هو يقرّ أنه ليس ملاكا، لكنه أيضا ليس شيطانا.. حيّره الأمر كثيرا وكاد يسرق النوم من عينيه لولا أن تكالب عليه تعب السفر وسلطان النوم فتراخت جفونه وفي داخله صوت خافت يتساءل:

- ماذا هناك يا هدى؟!

-14-

لم يلتق خالد هدى مذ أرشدته في اليوم الأول إلى مكان الملتقى. يصعب عليه أن يصف وتيرة مرور تلك الأيام الخمسة.. أكانت بطيئة أم سريعة؟!

أحيانا كان يشعر بالحماس الشديد، خصوصا إذا ما راقته مداخلة ما، فيشتعل الأدرينالين في جسمه وتحمرّ أذناه ويرفع إصبعه طالبا الإذن بالكلام.

الملتقى كان منظما جدا. ترجمة فورية إلى ثلاث لغات: العربية، الفرنسية والإنجليزية. هكذا، وجد لسانه ينساب بالكلمات ويتحدث عن تجربته في ترجمة رواية «لوأوغلا» القصيرة إلى العربية، وأحيانا يتحدث عن رؤيته الأدبية لكتابات جي دي موبسان.

طبعا لم يقل لهم أنه ترجمها على إيقاع «الحلوى د كيكس» وكؤوس الشاي المنعنع، وأن قطته التهمت إحدى مسوداتها بعد أن اشتمت بها رائحة الجبن الأصفر..

في أحيان أخرى كان يمتزج لديه الحنين بالشعور بالوحدة. لم يفهم أكان هذا تأدّبا زائدا عن الحد من هدى، التي، ربما، فضلت تركه لملتقاه حتى لا يفقد التركيز. أم أن هناك شيئا لازال لم يفهمه؟!

لم يحاول الاتصال بها كي لا يكون وقحا. لحدّ الآن تصرفت هي معه بشهامة أنثوية نادرة. أتراه كان يعيش وهم الإعجاب بالذات الذي صور له أن هدى «تذوب عشقا في الأرض التي يمشي عليها»؟

لا.. يجيب نفسه. لم يصل الأمر يوما إلى هذا الحد. صحيحٌ أن قناع التحفظ كاد يسقط بل سقط.. لكن في العقل والقلب لازال هناك مكان للتراجع.. صحيح أنه مكان ضيق حرج.. لكنه هناك .. شبيه بعجلة سيارة احتياطية قد تبدو، لسنوات، بلا جدوى.. لكنها - وقت اللزوم- تبدو ككنز.

في أحيان قليلة أخرى، كان يستعيد ذلك الشعور المشاغب الجميل الذي يذكره بأيام الدراسة الأولى.. يأخذ ركنا قصيّا مظلما، ويستمع دون تركيز لما يقولون، خصوصا بعد الغذاء وقت القيلولة..

تتراخى أعصابه، تتحجر عيناه ثم يغيب تماما عمّا حوله. فقط لتوقظه التصفيقات من نومه وقد سقطت رأسه على كتفه وتدلى لسانه واللعاب يسيل من فمه.. فيصفق بحماس.. ليس إعجابا بما قيل طبعا، بل فرحا بانتهاء الأمسية.

لم يكن يمتلك مزاجا لربط أي علاقة مع الحاضرين.. كان هناك أديب من العراق وآخر من تونس. تبادل معهما أطراف الحديث من نوع (آه - نعم - أرأيت؟ - سبحان اللّٰه - اعتن بنفسك)..

في الليل كان يتجول في الشوارع القريبة من مكان إقامته. لا يريد أن يتوه في هذه اللحظة، وفي هذه المدينة بالذات التي يتحدث قومها لغة لا يعرف منها حتى الحد الأدنى للأمان اللغوي.. الحد الذي يسمح لك على الأقل بالسؤال عن احتياجاتك البيولوجية.. الحدّ الذي يضعونه في دليل سياحة أي بلد..

أنا لست من هنا!

أين أجد المطعم؟

أين أجد سفارة بلدي؟

أين أجد دورة المياه؟

وأسئلة أخرى شبيهة.. لهذا كان يحرص على عدم الابتعاد وعلى ذاكرته للعودة إلى مكان إقامته..

ذلك المقهى الصغير الذي فاجأه فعلا أن اسمه «كافي طنجة»!

تلك المكتبة الصغيرة التي تشتغل فيها فتاة مملوء وجهها بالنمش طوال النهار..

ذلك المحل في الركن الذي يبيع لعب الأطفال، وهكذا...

هكذا كان يرسم خريطته الخاصة ليصل إلى شارع رئيسي يضج بالحياة، كان يمتعه أن يقضي فيه ما تبقى من وقت فراغه وهو يتأمل الدنيا والناس.

عدد كبير من المغاربة يمرون أمامه.. يعرفهم بسيماهم. لسوء حظه - أو لحسنه - لم يتعرفعلى أحدا منهم ولم يتعرف عليه أحد.

في اليوم الأخير من الملتقى سلموه مظروفا به تعويضا ماديا محترما. لم يتوقع هذا أبدا ولم يفكر به. لكن يبدو أن هؤلاء الناس يقدرون قيمته..

لا يعرف لماذا ضحك بشدة عندما فكر في هذا الأمر.. يتذكر أن كاتبا عربيا كتب يوما:

(قال لي أحدهم: أريد الذهاب إلى بلد يعرف قيمتي الحقيقية..

فأجبته: ولماذا تصر على فضح نفسك؟ ابق هنا مستورا أفضل لك.. ففي الغرب من السهل أن يدركوا أي حمار أنت!!!)

يشاهد التلفاز بعيون شاردة تماما.. القناة المغربية تبدو له رائعة جدا في هذه الغربة القصيرة.. حتى وصلات الإشهار، التي يكرهها، يشاهدها وهو يبتسم.

كمْ كمّ الأشياء التي أنت قادرة أيتها الغربة على جعلها تبدو جميلة؟

يسمع طرقا قويا على الباب فيطير من مكانه بسرعة وقلبه يخفق.. ما الذي يحدث؟!

يفتح الباب ويطل برأسه فقط من الفرجة.. رجال أمن هؤلاء؟!!

- شماخون فاغموش هنفن؟

- آي دونت أندرسطاند؟

- آر يو مستر خالد؟

- يس آيام!!

يبرز له رجل الأمن ورقة استنتج منها أنها إذن بالتفتيش.. كانوا ثلاثةً بنظرات صارمة جدا لا تقبل المزاح.. اضطر لفتح الباب وتركهم يدخلون وهو يغالب المفاجأة ويتساءل متى ينهض من هذا الكابوس بسرعة؟

اتجه أحدهم مباشرة إلى حقيبته.. أفرغها من الملابس بسرعة..

لاحظ خالد أنه رمى علب «ماروخا» بدون مبالاة، وتذكر، بدون وعي كبير، أن معاذ كان سيزوره غدا لأخذها..

بحذر شديد مزق رجل الأمن غشاء الحقيبة السفلي الداخلي بشفرة حادة..

بمزيد من الحذر قام بنزعه شيئا فشيئا حتى اقتلعه تماما..

وفي الأسفل هناك، تحت ذلك الغطاء.. كان يبدو آخر شيء في العالم يمكن أن يتوقعه خالد.. آخر شيء كان يمكن أن يحلم به يوما...

لوحة زهرليزا.. أو «الموناليزا المغربية»..

وكأي شخص عاديّ يحترم نفسه، قام خالد بما يجب عليه أن يقوم به...

هوى فاقد الوعي!!

-15-

(رسالة من خالد إلى معاذ)

عزيزي معاذ،

أشكرك كثيرا على رسالتك. فاجأتْـني تماما وأنا في وحدتي هنا في سجن «سات فيلاج» بطنجة في انتظار المحاكمة.

أوْصلها لي أحد الحراس وهي في حالة يرثى لها. يبدو أنهم لم يقرؤوها فقط، بل كانوا يفتشون بين حروفها عن شيء يستعمل ضدي كي يرسلوني إلى غوانتانامو ربّما..

لقد أعادتني رسالتك سنوات طوال إلى الوراء عندما كانت الرسائل الورقية تحمل لنا شوق المغتربين وجديدهم الذي يكون قد مرّ عليه شهر أو أكثر.. لكن شهرا بالنسبة لذلك الزمن المتباطئ كان يعدّ «زمنا قصيرا».. تلك المظاريف بأطرافها المزيّنة بالأزرق والأحمر والمكتوب عليها «باغ آفيون»، أي «بالطائرة».. تذكرها عزيزي معاذ؟

الآن، شهرٌ واحد فقط كاف جدا لتكسب ألف صديق وتمسح خمسمائة آخرين من صفحة فيسبوكك، وتتسلم عشرات الرسائل الجامدة التي تحمل مشاعر مكتوبة لا يصلك منها أيّ شيءٌ إلا فيما ندر..

تسألني عن أحوالي عزيزي معاذ.. ماذا أقول لك؟

سؤال بسيط سهلٌ من كلمتين، وإجابته طويلة مركّبة عميقة..

كيف يكون يا ترى حال شخص تم ترحيله من بلد أجنبي سافر إليها من أجل لقاء أدبي، نحو بلده الأصلي بعد خمسة أيام بتهمة التهريب والمشاركة في سرقة لوحة فنية وجدوها مدسوسة في حقيبته؟!

قد يكون صدمة أو خبرا حزينا بالنسبة لشخص قام بتلك الفعلة لكنهم كشفوا أمره.. لكن كيف يكون حال شخص لاهٍ غافل لا يعلم أي شيء عن الموضوع؟!

الطريف والمحزن في آن واحد أنهم يتهمونني بسرقة لوحة فنية من إرث طنجة التاريخي..

أيعقل هذا؟ أنا.. ابن طنجة.. العاشق الولهان الذي قضيت سنوات طوال من عمري أكتب مقالاتٍ دفاعا عن طنجة وعن تاريخها ومآثرها وتراثها كلّه ينتهي بي المطاف متهما بسرقة طنجتي؟

أحيانا أشك، بصدق، أنني في كابوس وأقول أنني قد أستيقض في أية لحظة لأجدني أهرش شعري متسائلا أين أنا، قبل أن أكتشف أنني لازلت في غرفتي وكأن شيئا لم يكن. لكن لا شيء يحدث من هذا. يقولون أننا نرى الكوابيس والأحلام بدون ألوان.. وما أراه للأسف ملوّن.. ملوّن جدا في الحقيقة..

بالنسبة لجديدي، فهو أنني أتلقى زيارات منتظمة من صديقينا المهدي ومنير، وبعض أفراد عائلتي أيضا.. وطبعا من «عزيزة رحمة»، تلك المرأة الطيبة التي كنّا نبيت عندها من حين لآخر أنا وأنت عندما نصل متأخّرين عالمين أن الأمور بالبيت لن تمر على خير.. فنقول لها أننا كنا نذاكر مادة الطبّ (وغالبا يكون ذلك في فصل الصيف!!) في كل مرة، فتصدقنا باعتبار حلمها هو أن نكون جميعا دكاترة..

«أكــــــليوفوبيا».. لقد كانت «عزيزة رحمة» تعاني من فوبيا الألم، ولازالت، لذا كانت تريدنا دكاترةً نحميها منها..

الحقيقة أنني لم أكن أريد لأحد أن يعلم بالأمر، لولا ثورة التكنولوجيا التي نشرت الخبر كنارٍ في هشيمٍ. من الأمور القليلة جدا التي أعترف لنفسي أنني أجيدها هي قدرتي على تحمل المصائب لوحدي. لا أريد لأحد أن يحمل همّي. يكفي الناس همومهم.. عندما أشعر بحزن المقربين من أجلي أزداد حزنا.. لذا، دعوني أصارع الهم ويصارعني وأنت أقعدوا فقط خارج الحلبة وادعوا لي بالتوفيق.. هذه رسالتي إليكم..

لكنك في آخر المطاف لا تستطيع أن تحرم الناس من حقهم في حبك والتعاطف معك. كيف يتم هذا التعاطف والحبّ؟ للأسف هم من يقررون ذلك وليس أنت..

هكذا جاءتني عزيزة رحمة تمشي على استحياء قالت:

- ولدي...

فقط قالت هذا ثم انهارت تقبّل يدي..

بالله عليك من يستطيع تحمّل موقف كهذا؟ قبلت أنا يدها، كتفها، رأسها.. بكيت أخيرا بعد مقاومة دامت أياما.. بكيتُ وبكيتُ حتى شعرت أن مقلتيّ قد جفتا..

جاءتني عزيزة رحمة ب «الحلوى د كيكس»، وبكعكة أعدّتها من أجلي، وببضع حاجيات تخصني أحضرتها من الشقة.. بل زادت على ذلك أن أدخلت يدها في القفة وأخرجت آخر شيء أتوقعه: قـــطتي..

كانت آثار عناية عزيزة رحمة قد بدت عليها.. تحتكّ القطة بي وكأنها تعلم كل شيء.. أحادثها أنا:

- هيه.. لا تقلقي يا حلوة.. صديقك تعوّد على كل شيء.. أعرف أن الحياة ليست مطعما يحاول أن يرضي زبائنه.. الحياة هكذا، كلها مفاجآت.. ترضيك مرّة وتحزنك مرّات.. هي المحك والاختبار فلأكوننّ الرجل الذي يتحمّله أو لأذهبنّ لأزغرد في الأعراس..

- اللّه يرزقك الصبر آ وليدي..

تقولها عزيزة رحمة معلقة فأؤمّــــن سرا.

- أرى أن كسر ساقها قد بدأ يشفى..

- لقد قمت بعلاجه ببعض الأعشاب.. اللئيمة.. بالكاد أستطيع أن أمسكها لأصنع لها تلك الجبيرة التي ترى.. كما أنني أريد أن أشكوها لك.. لقد أكلت لي مرّة ربع كيلو كفتة.. أرأيت؟ كنت سأؤدبها لكنني تراجعت من أجلك..

لم أتمالك نفسي وأنا أقهقه حتى دمعت عيناي. إنه أرذل العمر يا معاذ.. عندما يصبح المرء طفلا مجدّدا.. طفل قادر على أن يشعرك بالعطف والحماية رغم كل شيء..

- لكن، كيف استطعت أن تعبري بكل هذا يا عزيزة رغم المراقبة المشددة...

- واش سحابلك عزيزاك رحمة ساهلة أولا؟!

- حاشا للّه.. من يستطيع قول هذا؟! أنت قادرة على العبور بفيلٍ إن أردت...

عزيزي معاذ،

أعذرني لأنني أشغلك بكل هذه التفاصيل، لأني أشعر أنك جالس بقربي فأسترسل وكأنني أحادثك. المهم أن المحامي وعدني أنه سيبذل كل جهده كي تكون الأمور على ما يرام..

وكيف قد تكون الأمور على ما يرام؟ لم أشأ أن أسأله في الحقيقة..

قال لي إن لدينا بضع نقاط لصالحنا: مثلا، أن اللوحة بقيت في الحقيبة خمسة أيام، وهذا غير معقول لمن يريد تهريب لوحة! أكيدٌ أنه سيسلمها لصاحبها بمجرد الوصول إلى بلجيكا..

أيضا، تأكيدي في كل التحقيقات، سواءٌ تلك التي أجراها معي البوليس الدولي (الإنتربول) في بلجيكا، أو الشرطة هنا، أنني لا أعرف أحدا من العصابة التي سرقت اللوحة.. يستحيل أن أعترف بشيء لا أعرف عنه شيئا أصلا.. وبالتالي سيّد الأدلة يقف هنا معي وليس ضدي..

بل إن المحامي تمادى في تفاؤله وحماسه وقال لي أنه سيضيف مقالاتي عن طنجة كدليل للاستئناس..

تبقى النقطة الوحيدة السوداء المسجلة ضدي هي زيارتي لصديقنا المهدي في المتحف (والذي طرد منه بالمناسبة)، والتي اعتبروها أجمل تطبيق لدرس القانون الذي تعلّموه والذي يقول «المجرم يحوم حول مكان جريمته»..

طبعا، هناك الدليل القوي الملموس، اللوحة التي في الحقيبة.. وهو ما يجتهد المحامي لإثبات أنه قد تم دسّها لي دون علمي.. متى وأين؟

أنا نفسي لا أستطيع الإجابة عن هذا السؤال في الوقت الحالي..

عزيزي معاذ،

أشكرك جزيلا لوقوفك إلى جانبي في أثناء التحقيق معي هناك.. لقد كنت الأنيس والرفيق الوحيد بزياراتك التي كان من الممكن أن تدخلك معي في دوامة التحقيقات.. لكنك، كدْيدن كل الأصدقاء الانتحاريين، أبيت إلا الوقوف إلى جانبي..

على أية حال، كان هذا في مصلحتك، فقد استطعت أن أسلمك شوكولاطة «ماروخا» رغم تعنت الشرطة في عدم تسليمي حاجياتي إلا بعد عناء..

كيف وجدتها؟ لذيذة ممتعة كالعادة؟

بالصحة والعافية..

تسألني عن أجواء السجن؟

يقول الصوفية أن هناك الدنيا وهناك الآخرة...وهناك السجن.. ذلك العالم الثالث الذي لا يلجه الجميع.. وياليت شعري لو تعلم كم هم صادقون..

سأجيبك بالتفصيل في رسالة قادمة بعد أن تعلمني أنت أيضا بجديدك..

مودتي لك..

صديقك الذي يعزّك: خــــــالد

طنجة – سجن سات فيلاج

-16-

الجميع يتحدث عن هدوء يسبق العاصفة.. لا أحد يتحدث عن الهدوء الذي يليها..

في زنزانته بالسجن يجلس خالد.. وحيدا.. صامتا.. رفيقاه في الزنزانة نائمان، أو هكذا يبدوان. يفكر خالد في الأحداث العاصفية التي مرّت به. بالكاد يصدق أنه قد مرّت أسابيع معدودة فقط على بداية كل شيء..

يستمتع بوحدته تلك في السجن رغم عذابه الداخلي.. بوحدته وبصمت ليل السجن..

يتنهد وهو يتذكر أن الأمر بدأ فعلا بتراجع سبابته على بعد ملمتر واحد فقط عن زر الفأرة.

يتساءل: ماذا لو كان مسح هدى فعلا من قائمة أصدقائه على فيسبوك؟ أي حياة أخرى كان سيعيش؟ المهم أنه ما كان ليكون الآن نائما قرب قاتل وقاطع طريق على الأقل!

ومن يدري؟ لعلّ النتائج كانت ستكون واحدة في كل الأحوال، وبطرق وأحداث أخرى.. ومن ذا يستطيع الفرار من قدره؟

هدى.. أين هي الآن؟! منذ أوصلته أول يوم إلى الملتقى لم يظهر لها أيّ أثر. أعطى رقمها للمهدي وطلب منه الاتصال بها للاطمئنان عليها وطمأنتها، فوجد - ولازال - هاتفها مقفلا.

فيسبوكها أيضا، حسب المهدي، أرضٌ مقفرة.. لا تكتب أي جدارية، ولا تدخل للدردشة..

الغضب والحيرة والقلق.. تمتزج المشاعر في صدر خالد ويضطرب فؤاده..

هل كتب على علاقتنا يا هدى أن تكون هكذا كلّها؟ لقاءات قصيرة متبوعة بغيابات طويلة مجهولة السبب؟

في كل الأحوال هي علاقة وئدت في مهدها بدخوله السجن، لكنه على الأقل يريد أن يعرف أنها بخير.. ولتكمل حياتها بدونه بعد ذلك إن شاءت.. ومن الأفضل

أن تشاء.. لأن تقليد المسلسلات المكسيكية والتركية ليس في صالحها ولا في صالحه..

دائما لديه هذا الهاجس: هل يشعر الناس في هذا الزمن بالحبّ فعلا أم يتقمصونه فقط؟

وسائل الإعلام الحديثة تكاد تفسد كل المشاعر، تفرض على الناس حتى نوع الحبّ الذي ينبغي أن يشعروا به فيتقمصون الحالة عن وعي أو بدونه..

المرأة تنتظر من الرجل أن يعيش والورود في يده ك «مهنّد».. الرجل ينتظر من المرأة أن تبكي لأجله ليل نهار كي تكون مثل «لميس»..

إنهم يفتعلون.. يتقمصون.. أما الحبّ الحقيقي فيمكن أن تسأل عنه عنتر وعبلة وكل أبناء جيلهما.. عندما كان المحبّون أنفسهم يكتشفون الشعور بأنفسهم، ولا يسمعون به أولا ثم يتكلّفونه وكأنه واجب وجداني!

أطفِئْ التلفاز.. لا تستمع إلى أغنية.. وعندها إن شعرت بالحبّ فهنيئا لك.. لقد فعلتها وحملت لقب العاشق بكل استحقاق!

يعتدل خالد في جلسته إذ يشعر بأن للأفكار وزنا وكأنها تثقل عليه.. رغم الظلام يحاول أن يكتشف ماذا يوجد في القفة التي تضم حاجياته، والتي أحضرتها له العجوز رحمة...

تعاوده الأفكار من جديد..

ترى من وضعه في هذه الورطة؟ كلما فكر في الأمر بعمق وبمنطق يشعر أنه سيصاب بلوثة..

يحاول أن يرتب أفكاره على شكل فرضيات يخطّها على ورقة، على ضوء شمعة، كي لا تضيع منه في زحام خواطره التي لا تنتهي..

الفرضية الأولى: هناك من وضع اللوحة في حقيبته، بطريقة ما، في طنجة كي يهرّبها عن طريقه.. والسؤال هنا هو: كيف لم يرصدها الماسح الضوئي للأمن بالمطار؟

لعلهم احتاطوا لذلك فوضعوها عمدا في ذلك الغلاف الرقيق الذي كانت تلتف فيه إذ ضبطوها معه.. ولعلّ وجود شكولاطة «ماروخا» هو من ألهى رجل الأمن عنها..

الاحتمالان معا قائمان وممكنان مبدئيا، لكنهما يصطدمان بالسؤال الأهم:

لماذا لم يأتوا لأخذ اللوحة عندما كان ببلجيكا؟ عصابة من هذا النوع قادرة على دخول شقته دون عناء وأخذ اللوحة وتحقيق هدفها بكل هدوء ودون ضجيج، فلماذا تأخرت كل هذا الوقت حتى حدث ما حدث؟

الفرضية الثانية: هناك من يريد الانتقام منه، وقام بكل هذه الخطة لكي يستمتع برؤيته سجينا، وهي فرضية غير معقولة ولو أنها ليست مستحيلة.. فمن يتحمل كل هذا التعب والعناء فقط كي يراه في السجن؟ هناك طرق أسهل بكثير للوصول إلى هذه النتيجة.. ثم إنه لا يذكر أن له أعداء من هذا النوع، ولم يرتكب جرائم تستحق كل هذا الانتقام..

أكبر جرائمه هو قتل ذباب غرفته في الطفولة.. وسرقة أقلام بعض أصدقائه أيام الدراسة..

هناك أيضا بضعة كتب أقرضها له بعض أصدقائه لازال لم يردّها لحد الآن، تكاسلا فقط وليس عن نيّة مبيّتة..

يبتسمُ ضاحكا من استرساله ويواصل خربشة أفكاره..

الفرضية الأولى تبقى هي الأقوى.. وقد تكون العصابة تأخرت بشكل أو بآخر في القدوم من أجل اللوحة.. فمن يا ترى بلـــّـــــغ عن الموضوع؟! هذا هو السؤال الغامض المحيّر..

ما موقع هدى من كل هذا؟ هدى بريئة.. لا يريد أن يراها إلا هكذا. ليست مثالة ولا غباءً منه، لكن كل الوقائع تقول ذلك..

لقد كانت أمام هدى أكثر من فرصة لأخذ اللوحة متى أرادت، خصوصا أنها تعلم توقيت الملتقى الأدبي وتعرف بالضبط متى يكون في شقته ومتى يكون خارجها.. لهذا من غير المعقول أن تكون قد تباطأت حتى انتهاء الملتقى وحتى لحظة كشف اللوحة!!

كما أن فراسته تخبره أن هدى لا يد لها في الموضوع.. في كل جلساته مع هدى لم يلحظ منها خائنة أعين..

الكذابون، كالعشاق، تفضحهم أعينهم. لابد من التفاتة.. لابد من ارتباك.. لابد من لحظة يزيغ فيها البصر يمنة أو يسرة فتدرك أن الجالس أمامك ينوي الغدر.. وهو ما لم يصدر عن هدى أبدا..

ينقطع حبل أفكار خالد إذ تصطدم يده بشيء صلب وهو يفتش في القفة فيخرجه فيجده هاتفا من النوع الثمين..

ما هذا الذي أحضرته يا عزيزة رحمة؟ ومن أين أحضرته؟

الحقيقة أن شكل الهاتف ليس غريبا عنه كثيرا.. يعتصر ذاكرته ليستحضر أين رآه، فينجلي الضباب تدريجيا..

يتذكر أنه قد اشتراه يوما بثمن بخس دراهم معدودة من أحد المدمنين من أبناء الحيّ..

كان قد عاد ليلا منهكا، وكان المدمن مصرّا ولجوجا كذبابة.. وليتخلص منه قال له:

- سآخذه منك بخمسين درهما فقط.. هه.. ما رأيك؟

فاجأه أن المدمن وافق على الفور رغم أن ثمن ذلك الهاتف يفوق ذلك بمائة مرة تقريبا. فكر وقتها أنه غالبا قد سرقه. اشتراه منه وهو ينوي أن يتصل بصاحبه ليعيده له صباحا.. لكن متى كانت أصباح خالد في الأيام الأخيرة عادية كي يتذكر ذلك؟!

الآن، يبدو أن العجوز رحمة وجدته منسيّا مهملا بين حاجياته فأحضرته له..

الهواتف ممنوعة هنا بقانون غير مكتوب.. العجوز رحمة تعرف ماذا تفعل.. لكنه - وهو ابن العصر - لا يعرف ماذا يفعل، ولو شوهد الهاتف معه فقد يطمع فيه أحد الحراس أو أحد السجناء، وهو غير مستعد لأي مواجهة من هذا النوع حاليا..

ضغط زر تشغيل الهاتف وفاجأه وسرّه أنه لا يوجد هناك رقم سرّي.. الهاتف يضيء ظلمة وحدته ويزيح ظلال الشمعة الكئيبة..

سيكون هذا الهاتف تسليته السرّية لأيام حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا..

يداعب أزراره.. يضغط أيقونة الرسائل القصيرة.. يطلّ ضميره بسرعة من فوق رأسه آمرا:

- إمسح.. هذه أسرار ناس.

يتجه إبهامه نحو زر «إمسح» بعزم.. تتوقف على بعد ملمتر واحد فقط.. يتراجع ويؤجل العملية إلى وقت لاحق..

-17-

عزيزي معاذ،

أرسل لك رسالة ثانية قبل أن يصلني ردّ على الأولى لأنني أعلم أنه قد لا يصل. الحقيقة أنني كنت محظوظا عندما وصلتني أولى رسائلك. دائما كنت أعتبر وصول الرسائل معجزة إلهية، وكان لدي ذلك الوسواس المستمر: ماذا لو سقطت من ساعي البريد؟ ماذا لو تاهت بين آلاف الرسائل في الطائرة؟ ماذا لو قرر موظف في البريد - لسبب ما - أن يمسح بها الشاي الذي سكبه على ملابسه؟

كنت غالبا ما أصل إلى هذه النتيجة: عدم وصول رسالة هو شيء عادي.. الغريب حقا هو أن تصلك.

كان هذا في الزمن الجميل، أما الآن فأعتقد أن وصول رسالة هو حدث يستحق الاحتفال به.. فما بالك لو كان من سيستقبل الرسالة سجينا في مثل وضعي؟ سأكون متفائلا جدا لو قلت لك أنني أتوقع أن تصلني ردودك أو حتى أن تصلك رسالتي هذه..

دعني، إذن، أمارس نرجسيتي بالكتابة لنفسي، ثم إرسال الرسالة إليك مقنعا نفسي أنني لست متضخم الأنا كما قد يبدو!

مضى الآن أسبوعان عليّ بالسجن. في الأول كنت مرتاحا نوعا ما رغم كل الأحداث المتسارعة المهولة التي مررت بها.. فقد عدت لطنجتي وهاهي تغمرني بدفئها رغم أنني أتواجد في أسوأ أحضانها طرّا.

كنت محتاجا إلى الهدوء الذي يلي العاصفة.

أيضا، كنت محتاجا للجلوس لوحدي للحظات كي أرتب أفكاري و «أستمع إلى صوت عظامي» كما يقول أجدادنا.

هناك أمر آخر قد يبدو لك غريبا وهو أنني كنت سعيدا بعودة لوحة زهرليزا إلى مكانها الطبيعي بالمتحف الأمريكي. لقد كانت سرقة اللوحة جرحا بليغا في جسد طنجة وبالتالي في جسدي.. طنجة عانت من الظلم كثيرا جدا، ولم أكن لأريد لها المزيد.

مدينة هادئة باذخة بمقاييس عالمية يحاولون تحويها إلى قرية متوحشة! كل الجمال ينزعونه أو على الأقل يخمشونه بأظافرهم ويمزقونه. السايكوباثيون! في مقابل عدد الفنانين والمبدعين الذين أحبوا طنجة، هناك عدد لا بأس به من أعداء الجمال يأبون إلا أن يروا طنجة هشيما تذروه الرياح.. وياله من مطلب - لو يعلمون - صعب جدا.

قلت لك أن عودة اللوحة أراحني، حتى كدت أنسى مصيبتي.. لكن، بعد مرور الأسبوعين بدأت أشعر بالقلق والضيق. يبدو أن الأمر سيطول. والسجن ليس بالمكان المحبّب إلى النفس.

حالفني بعض الحظ في أمور.. لكنه لن يستمر..

مثلا، انتقلت معلومة أنني صحافي بين السجناء بشكل ما، وهكذا أصبحوا ينادونني «الصحافي». وهو لقب له رنينه وهيبته الكبيرة في مكان كالسجن.

بعضهم يلجأ إلي كي أفضح أعداءه الذين ظلموه ورموا به في السجن بهتانا وزورا.. فأقول لهم بلسان الحال - مستعينا بمثلنا الدارج - أنه لو كان الخوخ يداوي، لكان عالج نفسه أولا.

بعضهم يطلب مني كتابة رسالة لحبيبته، ويطلب مني أن أفتتحها بجملة «أكتب إليك بالقلم الأزرق.. والدمع من عيني يهرق».. يطلب مني هذا ويريني ساعده الذي وشم عليه اسمها.. ثم يقسم أنه سيتزوجها بعد خروجه من السجن، طبعا بعد أن ينتقم من أعدائه، بالضبط مثلما فعل «شاروخان»..

أنظر إلى عينيه فأجدهما صادقتين جدا.. هذا الرجل يعني ما يقوله.. يا إلهي! أيّ عالم هذا؟!

الكثيرون أيضا يتجنبونني وأتجنبهم، احتراما أو كرهاً.

رفيقاي في الزنزانة وقعا معي، دون كلام، معاهدة سلام. ابق في حالك ودعنا في حالنا ولن يتضرر أحد. يتصورون أنني سأفضح متاجرتهم بالمخدرات وبعض الأسلحة الخفيفة جدا، وهو شيء لم أفكر فيه على الإطلاق. ليس عجزا، ولكن بترتيب الأولويات فإن التبليغ عن هؤلاء في عالم موبوء بالفساد من مدخله إلى آخر نافذة فيه، هو ظلم لهم ولنفسي.. هناك أشياء أهم بكثير بالنسبة لي في الوقت الحالي.. والدخول في صراعات جانبية لا تعنيني بل هي حماقة وبطولة لا أدّعيها.

الكل يتاجر ويمارس فساده ها هنا بطريقته، ويصعب جدّا أن تقسم الموجودين إلى طيّب وشرير. أنا كنت أراقب فقط وأحاول أن أكتشف هذه الدنيا الذي أدْخِـــلـْـت إليها رغما عن أنفي.

لا يمكنك أن تتصور كمّ ونوعية الأشياء التي تباع وتشترى هنا. تخيّل ما تشاء، واطلب ما تريد وسيأتونك به قبل أن تقوم من مقامك.. شريطة أن تؤدي الثمن طبعا.. والثمن تختلف قيمته وطريقة أدائه حسب وضعك وحسب الشيء الذي طلبته.. المهم أن كلمة «لا يمكن» لا تقال إلا نادرا، لا تقال إلا للمساكين المغلوبين على أمرهم.. وعددهم لا بأس به هنا للأسف.

في الواقع، أنا واحد منهم. لكنني أحاول أن أتظاهر بالعكس، محتميا وراء لقب «الصحافي» ومعتمدا على حكمة «استغن عن الناس تكن أغنى الناس»، ومحتفظا ببعض المال الذي لديّ للطوارئ فقط.. فإلى متى أستطيع الاستمرار هكذا؟

لا أدري في الحقيقة، لأن هناك وجوها غير مبشّـرة أرى عيونها أكثر من مرة تنظر لي شزرا. وجوه كالحة أصحابها قادرون على الإيذاء متى شاؤوا بحكم سلطتهم التي فرضوها في هذه الغابة بطرق مختلفة: تكالـُـب، رشاوى، قسوة...

لكنهم، إلى غاية اللحظة، لازالوا مترددين ولازال يردعهم قناعي الجامد المتحفظ الذي لا يعرفون إن كان قناع خوف، أم قناع ثقة لرجل «صحافي»، أم قناع رجل مات قلبه..

عزيزي معاذ،

مرّة أخرى أطيل عليك وأشغلك بأفكاري وهواجسي التي ستحول نهار بروكسيل إلى ليل بالنسبة إليك.. أجدد اعتذاري وأريد أن أنهي رسالتي بأمر جديد وفيه ملامحُ بشرى لا بأس بها..

فقد أخبرني المحامي أنه مارس ضغطا كبيرا على الإنتربول كي يكشفوا له من قام بالتبليغ عنّي، باعتبار أن ذلك من صميم النقاط التي سيدافع بها عنّي، وهددهم أن حجب هذه المعلومة سيتخذ أبعادا خطيرة..

في الأخير استسلموا وأخبروه أنهم تلقوا بريدا إلكترونيا من مجهول يخبرهم بالأمر. وقد كشفت أجهزتهم أن الرسالة بعثت من مقهى إنترنت بمراكش.. وبالتالي يستحيل - طبعا - تحديد مُرسلها..

هذا الأمر، حسب المحامي، هو في صالحي ويشير إلى أن الأمر يتعلق بتصفية حساب لا غير وأن اللوحة تم دسّها لي..

هذا هو الوتر الذي سيلعب عليه المحامي في مجمل دفاعه. هذا ما قاله. وهذا ما أرجو أن يقنعهم. هذا ما أدعو الله أن ينجح.

تطلب مني تفسيرا؟ والله أنا نفسي لا أعرف من هذا الذي له مصلحة في وضعي في ورطة كهذه. لكنّني، مع كل هذا الكمّ من الإيذاء أشعر أن ذلك الشيطان بدأ يهزم ذلك الوازع الخيّر بداخلي، والذي كان دائما يساعدني لأبقى في الوسط.. لم أكن ملاكا.. لكنني أيضا لم أكن يوما إنسانا مؤذيا..

قالها كاتب يوما: «إن لم تفعل شيئا لأحدهم.. فإن أحدهم سيفعل شيئا لك»..

بعض النّاس يتفننون في إخراج الشر الذي بداخلنا.. فهل هم مستعدّون، فعلا، لتحمل العواقب؟!

صديقك الذي يعزك: خالد

سجن سات فيلاج - طنجة

-18-

- سمير.. ماذا بك؟!

- لا شيء.. لاشيء.. فقط لا أستطيع من النوم من شدّة البرد..

- يمكنك أخذ غطائي الاحتياطي.. لا حاجة لي به..

- لا، لا عليك..

- أنت ترتجف.. آه.. أنت تبكي.. ما الأمر؟!

يعتدل سمير جالسا وهو يمسح خده المبتل بكمّه. رفيق زنزانة جديد هو. تجاوز ربيعه الثامن عشر بشهور فقط. قال لخالد أنهم ضبطوه، ومن كان معه، يحاول الهجرة سرّا في قارب مطاطي.. تمكنوا منهم قبل حتى أن يزأر محرك القارب.

حكي له كيف أنه دفع 10 آلاف درهم لسمسار كي يمكنّه من «الحريك» نحو إسبانيا، لكن حظه العاثر جعل خبر عمليتهم يصل بشكل ما لحرس الحدود الذين وجدوهم يبتسمون في وجوههم بمجرّد صعودهم إلى القارب.

آثار الحياة الطيبة بل والمرفهة نوعا ما واضحة على وجهه. علم خالد منه أنه لم يكن في حاجة حقيقية إلى «الحريك»، فهو لازال يعيش مع والديه وأمامه المستقبل بكامله كي يشتغل أو حتّى يبحث عن طرق أخرى للهجرة الشرعية. لكن سمير لم يكن يطيق الانتظار. يقول لخالد:

- أنت لا تفهم. أنا لم أفكر يوما في هذا.. لكن ما العمل أمام مجتمع لا يرحم مثل هذا؟! يعود أصدقاؤك وأفراد عائلتك بسيارات فارهة من أوروبا، ويجدونك لازلت تحسب القطع النقدية في يدك لتتمكن من دفع ثمن قهوتك، بينما هم يمتلكون الكريديت كارد ويحوّلون الأورو إلى العملة المحلية فتصبح الحفنة رُزما! لقد أصبحوا رجالا بينما أنت لازلت تعيش في كنف والديك كطفل. يعودون وقد نجحوا بينما أنت لازلت تحمل ذات النظرة المنكسرة المنهزمة الباحثة عن أمل ما.. يوما ما.. أيّ قساوة تحملها نظرة إعجاب والديك برفاق دربك.. أي مذلة تشعرُها وهما ينظران إليك بحنان مشوب بقلق متسائل: متى تصبح مثلهم؟!

- هكذا قرّرت أن الحل هو الحريك؟

- نعم.. كان هو أقرب الطرق وأسهلها..

- طريق يحمل الموت في منعرجاته..

- لم أفكر في هذا وقتها.. اعتقدته حلاّ..

- أنت تجني الآن ثمار تهورك للأسف..

- أعترف طبعا..

كان خالد قد لاحظ أن سمير يتحرك - في باحة السجن - بارتباك شديد. دون أن يحاول إظهار ذلك، كان يبقى بجانبه أغلب الأوقات. اعتقد خالد وقتها أن سمير فقط يلتمس الأمان بقربه باعتباره رفيق زنزانة، وكذا لأنه الوحيد الذي تواصل معه لحدّ الآن..

يسأل خالد سمير عن سبب بكائه الحقيقي، فيقول:

- جماعة ذلك المدعوّ «المسموم».. إنهم يتحرشون بي..

- هه.. كيف ذلك؟

- كلما مررت بجانبهم تحدثوا عن العروسة التي يريدون أن يحتفلوا بها..!!

- يقصدونك؟

- نعم..

- الكلاب!

- ....

- لا عليك، حاول أن نبقى معا طوال الوقت.. يجب أن تفهم أنك في غابة حقيقية هنا. ضعفك هذا لا ينبغي أن يظهر لهم إطلاقا. بالنسبة لأولئك الساديين فضعفك لا يدفع للشفقة، بل لمزيد من الاعتداء والقهر.

- أحاول ذلك ولا أعتقد أنني أنجح..

- ابقَ بقربي مؤقتا حتى نرى حلا أو يقضي الله أمرا كان مفعولا..

- هو ذاك..

شعر سمير ببعض الطمأنينة فتمدّد مجددا، ثم نام حتى علا صوت شخيره. كان النوم قد فرّ من عيون خالد. فكّـــــر أنها فرصة لا بأس بها للاتصال بصديقه المهدي الذي أصبح يشتغل حارسا خاصا بالليل بأحد المصانع بالمنطقة الصناعية بالمدينة.. فرصة هي لتمضية الوقت وسؤاله عن جديده.

كان قد عرف الكثير من الأسرار وكشـف الحجب عمّا كان خافيا عنه. تعلّم متى وكيف يستعمل هاتفه المحمول. ثم بعد ذلك «اشترى» رخصة استعماله

أنّى أراد. تعلّم كيف يشحن هاتفه بالرصيد عن طريق صديقه المهدي الذي يرسل له أرقام التعبئة. وفي حال الضرورة، كان يعرف من أين يشتريها.

العالم الخارجي بكامله موجود بشكل مصغر في السجن، بقوانين مختلفة تماما. فقط، على القادم الجديد أن يتعلمها.

يعرف أنه سيرتكب، داخل هذه الغابة، الكثير من الآثام. لكنه مرغم لا بطل.

الاختيارات ليست كثيرة في السجن للأسف.. إما أن تكون نعجة أو ذئبا..

لم يكن من ضمن أحلامه أن يكون ذئبا يوما.. لكنه أيضا لا يرغب أن يكون ضمن النعاج..

هكذا، بدأ يكيّف نفسه تدريجيا.. يشعر بذلك الشيطان الداخلي يتضخم ويحكم سيطرته فلا يملك حيلة لردعه أو يهتدي سبيلا.. ساعد في ذلك الأحداث التي مرّ بها مؤخرا والتي غيّرت الكثير في نفسه.

- لقد نفذ اعتمادكم.. المرجو تعبئة رصيدكم...

الصوت الآلي يجيبه أن هاتفه خاوٍ على عروشه.. يتذكر ذلك الهاتف الذي أحضرته له عزيزة رحمة.. كيف نسيه؟! لو كان لازال به بعض الرصيد فسيكون حلالا عليه.. فليجرّب..

يركّب رقمه الشخصي. يرن هاتفه فيبستم في نشوة وانتصار.. ينظر إلى هاتفه بسرعة فيجد أنه يظهر إسما!!

هذا يعني أن الهاتف المجهول الصاحب يوجد ضمن قائمة الأرقام في هاتفه!

يقرّبه من عينيه ويقرأ: هـــــــــــــــــــــــدى!

يختلط عليه الحلم بالواقع.. لا يفهم بالضبط ما الذي يحدث. يفكر في المناداة على سمير.. (لماذا يناديه؟).. ينهض.. يطل من نافذة الزنزانة على الممر ذي الإضاءة الكئيبة.. يجلس.. يتمشى.. يتكّئ..

يا لها من مصادفة.. يا لها من مصادفة.. هل هناك من افتعل الأمر؟

لا يعقل هذا لأن هدى كانت قد أخبرته فعلا أن هاتفها قد سرق. إذن فقد سُرق كي يُباع له؟!

يتفحص الهاتف من جديد.. يداعب أزراره.. تبدو له إحدى رسائله القصيرة التي كان قد أرسلها لهدى.. تحت رسالته تبدو أولى كلمات رسالة شخص آخر.. يلفت انتباهه أن اسمه موجود هناك.. الرسالة تتحدث عنه على ما يبدو..

يفتحها. يقرأ. تجحظ عيناه. يقرأ باقي الرسائل.. يرتعش ويهتز جسده بقوّة..

ما يقرأه إما كابوس أو حقيقة ستودي به للجنون..

مغص في المعدة.. صوت في الأمعاء.. ثم.. كككككعععع...

لم يطق صبرا وأفرغ معدته التي لم تسطع صبرا أمام كلّ هذا الضغط العصبي..

يستفيق من بالزنزانة. يطلّ رجل أمن:

- ماذا هناك؟ ياك لابااااااس؟

- لا.. لا شيء.. لقد تقيّأت، لكنني بخير.. سأتكفل بالتنظيف..

- يجدر بك ذلك.

يبدأ التنظيف وصداع شديد يجتاح رأسه وكأن مئات المطارق تضربه...

أيّ غر ساذج غبيّ كنت يا خالد؟!!!

-19-

يضع خالد قطعة بسكويت في فمه ويمضغها بتثاقل وهو يحادث المهدي. يبدو المكان كسوق كبيرة ملآى لغطا وصياحا. الزوار والمساجين يجلسون متجاورين وكلّ يغني على ليلاه..

- لم أرغب في الحصول على البراءة مثلما أنا راغب في ذلك الآن..

- الحقيقة أن هذا لم يخطر ببالي أنا أيضا.. صحيحٌ أنني لم أغفل الموضوع، لكنني أبيْت الحديث معك حوله عالما أنك تدرك جيّدا ما تفعل..

- لازالت الحياة تحتفظ لنا بالكثير.. في كل مرّة تعتقد أنك ازددت حكمة تكشف لك أيّ أحمق متكبّر كنتـَـهُ.

- ما لا أستطيع فهمه هو ما دامت هدى خططت لهذا كله، فكيف فشلت في إتمام خطتها الرئيسية وهي الحصول على اللوحة؟ هل هذا يعني أن دخولك السجن كان هو الهدف؟! منطقيا هذا شبه مستحيل، لأن من يستطيع التخطيط لكل هذا، لن يصعب عليه إطلاقا إيجاد خطة أبسط بكثير من أجل إدخالك السجن..

- ها أنت ترى... رأسي يكاد ينفجر من كثرة التفكير في الأمر.. الرسائل تبين بوضوح أنها وأحد الأشخاص الأجانب كانا يخططان لتهريب اللوحة عن طريقي.. مثلا، تحدثت له عن أنها وجدت الهدية «اللائقة» بي.. كان هو يحثها على التأكد من حجم الحقيبة كي تناسب «القميص».. فهمت جيّدا أن «القميص» يقصدون به لوحة الموناليزا المغربية من خلال مراجعة كل الرسائل.. لقد فهمت البداية لكنني عاجز عن فهم النهاية..

- ماذا تنوي أن تفعل الآن؟

- كما ترى، العين بصيرة واليد قصيرة جدا.. لكنني لو حصلت على البراءة فأعدك أنني سأكون أنا من يقرر النهاية وليسوا هم.

- أرجو ذلك فعلا.. زرت محاميك مؤخرا أنا أيضا.. يبدو شابا ذكيّا جدا وملّماحا.. يمسك جيدا خيوط القضية في يده.. بالمناسبة، لا تفكر في التبليغ عن هذه الرسائل التي وجدت؟

- لا.. ما يوجد بين يديّ الآن ليس دليلا على الإطلاق.. سيعتقدون أنني لفقت كل هذا - وهي عملية سهلة بالمناسبة - وربّما ازدادت قضيتي تعقيدا.. حتى المحامي لم أخبره كي لا أربكه.. وها أنت تتصل بنفسك برقم ذلك الشخص فتجد أن الرقم لم يعد موجودا أصلا.. واضحٌ جدّا أنهم تعاملوا ببطاقات هاتفٍ مؤقتة مجهولة الهوية ثم تخلّصوا منها.. لاحظ أننا نتحدث عن عصابة دولية، وليس مجموعة من الهواة..

- عصابة دولية كل همّها إدخالك السجن؟ هذا مثير للجنون..

- هناك حلقة مفقودة في الموضوع كلــّـــه أعدك أنني سأبذل كل جهدي لأعرفها.. لقد وهبني الله عقلا مثلما وهبهم.. ولأكوننّ الرجل الذي يستغل هذه النعمة إلى أقصى حدّ إن كتبت ليَ البراءة..

- أدعو معك في السرّ والعلن..

- لا أشكّ لحظة في ذلك..

في زنزانته يراجع خالد ميزانيته المالية. ما يملكه من المال في تناقص، وهذا له معنى خطير جدّا في السجن. قد يفقد الكثير من الامتيازات. كان محظوظا جدّا لأنه استطاع الاحتفاظ بذلك التعويض الذي منحته إياه جمعية «أدباء من كل مكان» وقام بتحويله إلا الدرهم المغربي عن طريق صديقه منير.. أيضا، كان لازال يحتفظ بالمبلغ الذي كان ينوي أن يقضي به ما تبقى من أيام في بلجيكا قبل أن انتهاء مهلة التأشيرة..

قضية سمير كانت تشغل باله بشدة. استطاع أن يغمض عينيه عن مخالفات كثيرة في السجن لأن أغلبها كان فيه تراض بين الطرفين.. المخدرات، مثلا، تهرّب وتباع.. هذا خطأ.. لكن هناك بائع راض ومشتر راض في الأخير.. وهو يعلم أنه ليس المنقذ ولا المخلــّـــص كي يغيّر كل هذا..

لكن موضوع سمير يتجاوز المخالفة إلى الاعتداء.. اعتداء قويّ على ضعيف.. تدمير حياة شخص بالكامل لمجرد أنه غير قادر على الدفاع عن نفسه.. كمّ الحيوانية في الموضوع، ولجوء سمير إليه، لا يتركان له هامش الاختيار..

إما أن يدافع عن سمير أو ينخرط في جمعية « الشياطين الخُرس».. وبئس الانتماء هــــو.

يتجه سمير نحو المراحيض دون أن ينتبه إلى أن المسموم قد أشار لرفيقين له بملاحقته، قبل أن يتبعهما هو أيضا..

اللحظة التي خشيها خالد كثيرا جاءت بسرعة. تزداد نبضات قلبه تسارعا. يشعر بخوف شديد. يتساءل: من أين يأتي أبطال الأفلام بكل تلك الشجاعة؟!!

يتبع هو أيضا المجموعة كلها. يدخل المرحاض فيجد أن عملية التحرش والإيذاء قد بدأت لفظيا:

- لا داعي لأن تجعلنا نختار الطريقة الصعبة معك..

- تفضل أن تـُـغتصب أم تقتل؟ لك الاختيار..

- لاحظ أنك بعد هذا ستصبح من جماعتنا ولن يؤذيك أحد..

تصل هذه العبارات إلى مسامع خالد وهو يلج. يسمع الثلاثة وقع أقدامه فيستديرون إليه. يقول «المسموم» بتحدّ:

- أشّ كاين؟!

- لا شيء. أريد أن أقضي حاجتي..

- ليس الآن عد فيما بعد.. هيّا..

كان يتحدث برنّة فيها جبروت وتهديد وكبر. لكَمْ كره خالد وجهه وصوته.

- كنت أتمنى هذا، لكن مثانتي لها رأي آخر.. أنا أتفهم.. هي لا.

- أها.. أنت هنا لتتحدّانا إذن؟

- شي حاجة فحال هايداك..

بشكل مفاجئ أخرج خالد من خلف ظهره حديدة حادّة على شكل سيف. وحرّكها بطريقة تظهر أنه ألف استعمالها دائما.

- أربعة في المتحف.. وثلاثة هنا؟ لا مشكلة.. إنه المؤبّد في كل الأحوال..

ينظر إليه الثلاثة نظرات غريبة..

يعلم أنهم غير مسلحين..

هم خائفون.. متوجسون.. مترددون.. يقدّمون قدما ويؤخّرون أخرى.. يشعر بخوفهم.. أتراهم يشعرون برُعبه؟

بدوْا له كضباع جاء يبعدهم أسدٌ عن الفريسة. هي هي تلك النظرة التي رآها في أحد البرامج عن عالم الحيوان..

بدت له لحظة ترددهم كسنة كاملة مما يعدّ. أخيرا، انسحبوا ببطء و«المسموم» يلوح بسبابته بمعنى « لقد ارتكبت خطأ فادحا»..

في الزنزانة شرح خالد لسمير ما حدث. لقد استعان بالمال مرّة أخرى من أجل أمرين: حصل على السيف وعلى رخصة حمله مؤقتا، ثم تدرّب على تحريكه بطريقة توحي بالاحترافية الإجرامية.. ثم اشترى أغرب شيء يتصوره بشر في السجن.. «إشاعة»...

نعم اشترى خالد إشاعة مفادها أنه عندما «سرق» اللوحة قتل أربعة أشخاص بالمتحف الأمريكي! ومصدر الإشاعة كان طبعا موثوقا جدا: أحد الحراس.

البعض يصدّق والبعض لا يصدّق، لكن للإشاعة سطوتها التي لا تقاوم.. هي كرة الثلج التي تتدحرج ليتحول قاتل شخص إلى قاتلٍ لمئات الأشخاص!

والناس يحبّون تصديق هذه الأشياء. ذكره هذا بفيلم مصري كان قد شاهده عن شخص يشبه أحد المجرمين الملقبين ب«الوحش». كان الجميع يفرّون منه ويخشونه بينما هو لا يفهم. يحاول أن يقنعهم أنه مجرد مسكين لكنّ الناس تأبى التصديق.. إنهم يريدون شخصا يخشونه ويصنعون منه أسطورة.

هكذا، استسلم بطل الفيلم للواقع وأصبح «وحشا» رغما عن أنفه في بادئ الأمر، قبل أن يستسيغ ذلك ويتحول إلى وحش فعلا. الناس يصنعون الأصنام ثم يعبدونها.

في الأخير كان لخالد ما أراده وأصبحت سمعته الإجرامية لا بأس بها. بينما كان هو يرسم على وجهه تعبير «الرجل البارد الذي يوحي بالأمان والثقة لكنه قادر على قتل قبيلة»!

هكذا إذن، وظف تلك الإشاعة عندما دخل خلف عصابة «المسموم» الذين آثروا السلامة على ما يبدو.. ولو مؤقتا..

- لقد كنت بارعا في تحريك السيف بتلك الطريقة...

- هاها.. لو أفلت من يدي لكنت في موقف محرج فعلا..

- ماذا لو كانوا تجرأوا على مهاجمتك..

- والله لا أدري.. ربّما كنت فعلا أضفتهم إلى الأربعة الذين قتلتهم في المتحف.

يقهقهان بقوة. يشعر سمير بالامتنان فيقبل رأس خالد ويذهب للنوم. خالد ينظر إلى الجدار الذي يقابله.. بالضبط إلى أحد الشقوق الذي يذكره بشقته.. حنين يعتريه إلى حياته البسيطة تلك قبل دخول السجن..

مرّة أخرى يشعر بذلك الشيطان يتضخم ويتضخم.. موقف اليوم أثبت له أن أغلب الطغاة والمجرمين هم جبناء يتظاهرون بالشجاعة، وعند أول محك يتبولون في سراويلهم..

هو أيضا كان خائفا جدا، لكن يبدو أنه نجح في إخفاء شعوره. يتذكر لحظة إمساك مقبض ذاك السيف التقليدي في يده. يفهم الآن لماذا يرتكب الناس الجرائم. ذلك الشعور بالقوة والتمكن الذي تمنحه مقابض الأسلحة رهيب جدا.

الحقيقة أنه كان ينوي فعلا أن يستعمل ذلك السيف لو كانوا هاجموه.. في السجن يجد المرء نفسه أمام خيارات محدودة.. وهو يختار الخيارات الأصعب.. لكنها الأصحّ.. على الأقل في نظره.

-20-

هناك ألقاب وألقاب..

هناك ألقاب جميلة، وهناك ألقاب قبيحة..

وهناك ألقاب لا تجدها إلا في مدينة طنجة..

عيناك ضيّقتان قليلا؟ إذن فأنت «التشينو»..

شعرك أشقر بعض الشيء؟ إذن فأنت هو «الروبيو»..

أما إن كانت بشرتك سمراء فمرحبا بك يا «إفريقيا»... والله المستعان على ما تصفون..

الحقيقة أن خالد لم يستغرب خالد كثيرا عندما سمع ب«الطمأنينة» لأول مرة.. و«الطمأنينة» هو لقب زعيم مجموعة في السجن ذات قوة وهيْبة.. ليست منافسة مباشرة لمجموعة «المسموم» في الحقيقة، لكنها في ذات قوّتها رغم غياب أي احتكاك بينهما.. يبدو أنه لحدّ الآن لم تتضارب مصالحهما بعد، كما يبدو أن الاثنان معا يتجنبان ذلك.. لديهما من المشاكل والمشاغل ما يكفي..

«الطمأنينة».. ما أروع أن يناديك الناس ب«الطمأنينة»..

كان خالد يعلم أن هذا اللقب هو نتيجة غلطة فادحة غالبا.. غلطة في أقسام الدراسة الابتدائية حيث يسألك الأستاذ مثلا عن معنى الطمأنينة فتجيب:

- إنها الشجاعة يا أستاذ..

فتفلت ضحكة خافتة من الأستاذ، ثم ينفجر القسم ضاحكا وكأنهم جميعا كانوا يعرفون معناها. هذا قبل أن يكشر الأستاذ في وجوه الجميع مجددا ثم يتسلى بصفعك على مؤخرة رأسك.

هكذا.. خطأ صغير جدّا قد ترافقك تبعاته إلى قبرك..

الحقيقة أن المسألة ليست بذلك السوء في كل الأحوال.. لم نسمع بعد عن شخص انتحر لأن لقبه «الطمأنينة»..

طبعا لم يكن بين «الطمأنينة» ولقبه إلا الخير والإحسان، فالرجل من مرتادي السجن بتهم عديدة يتعلق أغلبها بالنهب والسطو على الممتلكات والمتاجرة في المخدرات..

لكن خالد لاحظ أن «الطمأنينة» ليس بذلك الشر الذي يبدو به.. راقبه أكثر من مرّة وهو يحتفظ ببقايا بعض وجباته ثم يطعمها لقطط السجن.. تلك النظرة الطفولية السعيدة في عينيه كانت تثير خالد بشدة.. هذا الرجل لازال إنسانا لم يتلوث معدنه الداخلي بعد، رغم تلك القذارة التي تبدو طافية في الخارج..

من خلال قصته، التي سمعها من السجناء، علم خالد أن «الطمأنينة» يختلف تماما عن «المسموم»..

كل ما كان يريده «الطمأنينة» هو أن يكون بخير.. يرتكب أخطاءً كثيرة في طريقه نحو أحد هدفيه، أو كليهما، لكنّه لا يقصد ذلك ولا يريده.. هو فقط لا يعرف طرقا كثيرة للوصول إلى هدفه.. بالضبط مثل فيلٍ لا يعرف طريقة يداعب بها صاحبه سوى التلويح به بخرطومه أو الدوس عليه بقدمهٍ..

حتى الأخطاء تختلف..

هناك دائما أخطاء وهناك هفوات.. هناك كبائر وصغائر.. هناك آثام وهناك فواحش..

«المسموم» كان يحبّ الشر.. يستمتع بأذية الآخرين.. «الطمأنينة» لم يكن يؤذي أحدا على الإطلاق ما لم يتعرض للأذى..

هكذا، كان على خالد أن يتقرّب منه. عرف قصّته. وعرف أنه في هذه المرّة، سُجن ظلما فعلا..

يحمل صفيحته التي تحتوي على أكلة «العدس» ويقترب منه ثم يجلس قبالته:

- الطمأنينة..

- الصحافي...

- هانية؟

- م لهنا...

- ش فيها؟

- شاحتة...

كان خالد قد تعلم لغة السجن. هنا ملّ الناس الثرثرة. شعار الحوارات هو الاختصار. قل ما تريد بأقل الكلمات. هؤلاء الناس ملّوا من الكلام المنمّق.. سمعوا منه ما تفيض له الوديان دون نتيجة تذكر.

- سمعت أنك بريء..

- قالوا..

- أكتب عنك مقالا؟

- تستطيع؟

- أكيد.

- سهلة؟

- بسهولة التهامنا لهذا الحصا.. أقصد العدس.. صورة؟

- لديّ..

هكذا تصرف خالد بسرعة. سرّب مقالة بتوقيع مجهول وصورة مع صديقه المهدي. الحقيقة أنه لم يدافع عنه.. هو فقط أعاد صياغة الوقائع بطريقة مختلفة قليلا، مع تساؤل في الأخير: فهل الشخص المعروف ب«الطمأنينة» هو من فعلها حقا؟

وجاء من أقصى السّجن رجل يسعى..

حمل معه نسخا من الجريدة وأعطاها لزعيمه «الطمأنينة».. خلق الحدث ضجة كبيرة في السجن وأكسب خالد المزيد من الشهرة والاحترام..

باستغراب شديد لاحظ خالد أن «الطمأنينة» لم يعبأ إطلاقا بمحتوى المقال. لقد كان سعيدا برؤية صورته في الجريدة.. بدا أن هذا كل ما يهمه.. لم يكن مخطئا عندما ظنّ أن طفلا كبيرا لا زال يسكن هذا الرجل..

اقترب من خالد ولكمه في كتفه ثم بصق على الأرض.. كانت هذه أسمى عبارات التقدير والشكر بالنسبة له..

- أنت رجل..

- وعدتك..

- العزّ للرجال..

- سمير ساعدني كثيرا في هذا الأمر..

- هو رجل أيضا..

سمير لم يفعل أي شيء. لكن خالد كان يريد أن يضمه معه بشكل ما إلى عصابة «الطمأنينة».. لابد في السجن أن تنتمي لجماعة ما.. إنما يأكل الذيب من الغنم القاصية..

هكذا اتضح الأمر للجميع: خالد وسمير من جماعة «الطمأنينة» الآن.. والويل، كل الويل، لمن سيقلق طمأنينة «الطمأنينة» بإيذاء أصدقائه..

هذا ما كان يريده خالد بالضبط. يعلم أن «المسموم» لم يكن ليصمت على ذلك الموقف السابق كثيرا. أصحاب القلوب السوداء لا ينسون أبدا. حياته في السجن كانت ستتحول إلى جحيم وهو ينتظر انتقام المسموم منه ومن سمير في أية لحظة. الآن، لاحظ أن «المسموم» هو من يتحاشاه في أكثر من موقف.. لم يكن مخطئا عندما عرف أنه جبان.. مجرد غدّار آخر لا يمتلك القدرة على المواجهة حقا..

يتبادل خالد وسمير أطراف الحديث في زنزانتهما..

- عليك أن تحلق شعرك الآن وتترك لحيتك تنمو..

- لكن..

- لا تعترض.. ألا زلت لم تفهم الوضع بعد؟ هذا عالم له مقاييسه الخاصة.. الوسامة والسمت الهادئ احتفظ بهما إلى حين وجودك هناك في العالم الخارجي.. هنا قمة الجمال أن تكون بشعا.. أشعث أغبر.. هناك حكاية غريبة عنوانها «قرية العميان»، يجد فيها البطل نفسه في قرية كل أهلها لا يبصرون.. تعتقد أن هذه ميزة أم نقيصة؟

- يفترض أنها ميزة، لكنّ مادمت تروي لي القصة فـــ.....

- بالضبط.. لقد اعتبرها أهل القرية نقيصة.. كان البطل يحاول أن يتحدث لهم عن زرقة السماء.. عن الخضرة.. عن سريان الماء في النهر.. لكنهم كانوا يصدّونه ويسخرون: ماذا يقول هذا الأحمق بالضبط؟ وهكذا تستمر القصة حتى يستسلم البطل ويفكر في فقأ عينيه كي يصير مثل أهل القرية لتنتهي مشاكله ويصير «شخصا عاديا».. لحسن حظك أنت لن تضطر لهذا، لكنك مضطر لبعض التغييرات كي يتم قبولك في قرية العميان هذه..

- منطق مرعب لكنه، للأسف، صحيح.. وقد تأكد لي أكثر من مرة..

- جميل إذن..محاكمتي غدا.. قد أعود كمقيم، وقد أعود لأجمع حاجياتي فقط ولو أنه أمر مستبعد.. لكن إياك أن تفارق جماعة «الطمأنينة».. هو الآن يحترمك ويقدّرك بشدة.. فحافظ على هذا المكسب..

- سأفعل ما استطعت إلى ذلك سبيلا..

يقف خالد خلف قضبان المحكمة. هذا المشهد لم يكن يراه إلا في الأفلام. غالبا سيخرج القاضي ليقول أن المحكمة «حكمت حضوريا على المتهم بالإعدام شنقا».. هذا ما يفعلونه دائما.. لكن الواقع يختلف.

كانت المحكمة غاصّة بالحضور. لم يعرف خالد أن قضيته أخذت هذا البعد الإعلامي الاجتماعي إلا في هذه اللحظة. البعض كان يلوح له بإبهامه دلالة على النّصر.. بينما هو بالكاد يستطيع ابتلاع ريقه.

يقترب منه المهدي:

- إن شاء الله خير.. محاميك جهبذ حقيقي..

- تعتقد؟

- متأكد.. لقد سمعت بنفسك.. الرجل لم يترك ثغرة إلا وتسلل منها.. الدعوة إلى بلجيكا التي لم تخطط لها وجاءتك على حين غرة.. اللوحة التي بقيت في الحقيبة خمسة أيام كاملة.. الرسالة المجهولة التي توصل بها البوليس الدولي..

- سنرى..

يسمع خالد دقات قلبه المرتفعة وكأنها طبول.. أتراهم يسمعونها هم أيضا؟ عرق يسيل من جبينه.. من إبطيه.. يفقد القدرة على الاستمرار واقفا فيلجس في انتظار خروج القاضي للنطق بالحكم..

يرى «عزيزة رحمة» وهي ترفع كفيها متضرعة لله.. يشعر بأمل حقيقي وكأنه سمع نبأ براءته للتو..

يسمع شبه جلبة وهمهمة.. يقف الجميع فيقف هو أيضا إذ يسمع أشهر صرخة في التاريخ..

"محكـــــمة"...

" بسم الله الرحمن الرحيم..

فإنه، وبعد الاطلاع، على الإثباتات التي تقدم به دفاع المتهم..

وطبقا للمادة.....»

يصاب خالد بصمم كامل. يسمع ولا ينصت. ينتظر فقط آخر ما سينطق به القاضي.. لا يعبأ لا بالنصوص القانونية الآن ولا بموادها ولا فصولها. لا بالنيابة العامة ولا بالدفاع ولا أي شيء..

فقط يريد النتيجة.. النتيجة التي ستحوّل مجرى حياته..

-21-

أخيرا فرغت الشقة من الزوار والمتعاطفين والصحافيين والأصدقاء وأصبح خالد وحيدا..

كانت قد امتلأت عن آخرها بالمهنئين الممتزجين بعدد لا بأس به من الفضوليين، حتى إن خالدا كان إذا أخرج يده لم يكد يراها. شقته التي بالكاد تسعه لوحده كانت محفلا حقيقيا قبل قليل..

ضجيج من كل نوع حتى اختلط لدى خالد الواقع بالحلم..

في طفولته، عندما كان يكثر اللغط، خصوصا في حفلات الأعراس التي كان يرافق لها أمّه، كان ينتابه هذا الشعور بأنه يحلم ويفقد تركيزه وشعوره بشكل شبه تام.. حتى إنه كان يحرك رأسه بقوة أكثر من مرة كي لا يغيب نهائيا عن الوعي..

ذات الشعور استعاده اليوم. فقط هذه المرة كانت الفرحة أقوى من أي شعور آخر فحافظ على تركيزه حتى انصرف آخر شخص..

وآخر شخص كان هو العجوز « رحمة» التي لم تنس أن تترك له صحن «الحلوى د كيكس» فوق المائدة..

- هاك يا ولدي.. كلْ وانس همّ وتعب السجن..

- دائما في الموعد يا «عزيزة»..

الحبس سنة كاملة مع وقف التنفيذ..

يتذكر لحظة نطق القاضي بالحكم فتتسارع نبضات قلبه مرّة أخرى.. لقد كان يراقب شفتيْ القاضي وكأنه يتحدث بالعرض البطيء.. عندما سمع كلمة «الحبس» اعتصر قضبان القفص بقوة وهو يتوقع الأسوأ، قبل أن يسمع جملة«موقوفة التنفيذ» ويرى على وجه المحامي أمارات الارتياح مع إشارة النصر، ثم علا الصخب والضجيج حتى إن القاضي اضطر إلى التهديد بإخلاء المحكمة..

قال له المحامي انه مع ذلك سيستأنف.. وقف التنفيذ يعني أنه إذا ارتكب جرما ما في السنوات القادمة فقد يضطر إلى تنفيذ العقوبة القديمة مضافة إلى العقوبة الجديدة..

لو قيل له هذا في وقت سابق لاعتبره مجرد كلام زائد لا قيمة له باعتبار أنه من المستحيل ارتكابه لجريمة.. ولاطمأن قلبه إلى الحكم واعتبره بمثابة براءة كاملة..

لكن الآن، وبعد الضيم الذي لحقه.. لا يستطيع أن يعد أحدا بشيء.. حتى نفسه..

هناك أمور لابد أن يفهمها وأن يسويها مع أصحابها.. أثناء ذلك، هو ليس ضامنا لما قد يقع..

لا تطلب من شخص يدافع عن نفسه أمام قطاع طرق أن يحرص على ألا يرتكب جريمة.. هذه الأمور ليست بيده.. قد يكزُ أيّ شخص فيخرّ صعِـــقا.. وهذا ما يحدث معه الآن بالضبط..

الليل ينتصف. يعرف أن النّوم - رغم كل الإرهاق والتعب- سيكون بعيد المنال، لذا احتاط للأمر وطلب من صديقه منير أن يحضر له شتلة من نبتة الخزامى. هكذا شرب من منقوعها حتى ارتوى..

قطته لا تصدق الأمر ولا تعرف كيف تعبر عن فرحتها. تتمسح بقدمه. تلعق أصابعه. تتكوّر. تموء بصوت هو إلى الغناء أقرب. يداعبها هو بكل حبّ.

لأول مرة منذ بدأ تربيتها ينتبه إلى أنه لم يطلق عليها أي اسم لحدّ الآن..

- ما رأيك ب «الطمأنينة»؟ اسم جميل أليس كذلك؟!

هي تعرف أنه يوجه الكلام إليها فتزداد تمسحا به. يحملها بين يديه ويتمدد فوق فراشه الذي اشتاق له كثيرا بعد أن أثّـــــر فراش السجن كثيرا في جنبيه وظهره..

ينظر إلى الشق في الجدار المجاور والذي اشتاق له هو أيضا.. كل الموجودات تبدو ذات قيمة عندما نغيب عنها..

أثر منقوع الخزامي يبدأ في الظهور..

يشعر بارتخاء أعصابه.. بانتظام أنفاسه.. بتثاقل جفناه..

ثم ينتهي كل شيء.

طرق خفيف على الباب..

ألن يتركوه ينام؟ أتراه متحمسٌ آخر يريد أن يظهر له تعاطفه؟ شعور جميل، لكن هو لازال في حاجة للراحة الآن.. الراحة فقط..

يفتح الباب فيجد صديقيه المهدي ومنير..

- مرحبا أيها الأشاوس.. ماذا هناك؟

- ماذا تقصد؟ ألم تطلب منا أن نوقظك إذا تأخرت في النوم؟

- ماذا؟ تأخرت؟ هل نمت فعلا؟

- بل توفيت.. الساعة الآن السادسة مساءً..

- كفاكما مزاحا.. هل تعنيان أنني نمت ليلة ونهارا كاملا تقريبا؟

- أمامك الساعة والتاريخ لتتأكد..

لم يصدق خالد أن التعب والإنهاك بلغا منه ذلك المبلغ. فعلا لم يشعر بأي شيء إطلاقا بين لحظة النوم والاستيقاظ.. ياله من موتٍ صغيرٍ هذا النوم!

- الآن، ستقدمان لي معروفا كبيرا..

- وهو.. ؟!

- أريد أن أتجول في طنجة لوحدي.. لدي الكثير لأقوله لها..

- طبعا أيها الفيلسوف.. أصلا نحن ذاهبان لمشاهدة مباراة «الكلاسيكو».. أتينا فقط لإيقاظك حسب طلبك ولأننا كنا قلقيْن عليك.. أنت تعرف أن خرّيجي السجون ينتحرون في الغالب!

- لا أدري من أين تأتي بهذه الظرافة يا منير..

- من شابه صديقه فما ظلم..

يبدأ خالد جولته من شارع «البوليبار». يتأمل المشاة.. أضواء المحلات التجارية.. السيارات.. يصل إلى شارع المكسيك.. الباعة المتجولون ينادون على بضائعهم..

يتوقف لدى بائع يضع على الأرض أمامه مجموعة من «البوستيرات».. تعقد المفاجأة لسانه وهو ينظر إلى أحدها.. يسأل البائع بصوت متحشرج مستغرب..

- هل بدأتم تبيعون نسخا من لوحة الموناليزا المغربية أيضا؟!

- تقصد «زهليزا»؟ يوه.. أكيد.. لقد اشتهرت كثيرا لأنها تعرضت للسرقة.. وقد بعنا منها نسخا كثيرة.. هل تريد نسخة؟ سأبيعك إياها بثمن مناسب.. هذه فرصة ممتازة.. يقولون أن صحافيا قتل ثلاثين شخصا قبل أن يسرقها..

- لا أعتقد.. سمعت أنه قتل خمسين شخصا ثم فجّر المتحف قبل أن ينتحر.. لهذا حكموا عليه بالإعدام..

- ياله من مجرم!

يتمشى خالد وهو يفكر. قضية مُن هذا النوع لم يعتقد أنها ستحظى باهتمام العامّة. أفطِن الطنجاويون أخيرا إلى قيمة مدينتهم وأهمية آثارها وتحفها؟ أكان حدث زهليزا بمثابة صفعة لهم ليستفيقوا وليدركوا أي مدينة هي طنجة؟

مثل هذه البضاعة لم تكن تجد فيها فيما مضى سوى صور لممثلين هنود أو أتراك، أو صور لاعبي كرة قدم.. وأحيانا، من باب التغيير، يبيعون صورا شاحبة - من كثرة نسخها - لحيوانات...

لاحظ أيضا أن الكثير من المارة يحدقون فيه باهتمام. بعضهم يتعرفه فيبتسم له، وبعضهم يشك في الأمر فيستمر في التحديق عاقدا حاجبيه كأنه ينتظر من خالد أن يقول له: نعم، هو أنا..

هاهو بائع آخر يدعوه لشراء زهرليزا..

أتراها تتحرش به من جديد؟

هذه المرة قرر أن يشتري نسخة للذكرى.. ذكرى أول يوم له في الدنيا..

يجلس في مقهى «لاخيرالدا» وهو يتأمل البحر الأسود الهادئ.. أضواء الميناء تبدو له مختلفة من هذه الزاوية.. لكنها محتفظة بذات الألق..

يفرد صورة زهرليزا..

- أي عذاب ذقته بسببك يا «زهليزا».. من كان يتصور هذا يوما.. كيف استطاع جمالك أن يتسبب لي في كل هذا الضنك لي؟

يتأمل عينيها اللتين لطالما أثارتا إعجابه.. ذلك الانحراف الخفيف في سواد العين اليمنى كان يروقه بشدة.. أكان إبداعا من الرسام جيمس ماكباي أم أن عيني الزهرة الحقيقيتين كانتا كذلك؟

استغرب كيف أن ذلك الانحراف غير موجود بذات الحدّة في هذه الصورة؟ أو ليست مأخوذة عن زهرليزا الأصلية؟

أقلقه الأمر بشدة وبدأت الكثير من الهواجس تنتابه.. عاد إلى شارع المكسيك ولم يترك بائعا إلا تصفح النسخ التي يبيعها.. كلها تحمل ذات الخطأ: ليس في العينين انحراف ملحوظ..

يتصل بالمهدي هاتفيا..

- المهدي.. هذه النسخ من الموناليزا التي تباع في شارع المكسيك.. ما أصلها؟

- حسب علمي.. أحد الصحافيين قام بتصويرها عن قرب وبجودة عالية عندما أعادوها إلى المتحف فانتشرت الصورة كنار في هشيم.. لم تسأل؟

- لا عليك.. فقط أردت أن أتأكد من مسألة..

يدخل خالد أحد مقاهي الإنترنت.. يستخرج صورة لوحة زهرليزا القديمة قبل أن تتم سرقتها من محرك بحث.. يقوم بطباعتها على ورق شفاف كبير بنفس حجم الصورة التي اشتراها.. يعود إلى شقته ويضع الصورتان فوق بعضها بشكل متطابق فتصعقه النتيجة..

لقد كان على حقّ.. هناك خطأ كبير حدث لم يشعر به أحد..

-22-

يجلس خالد في شقته مواصلا التفكير.. أتراه على حقّ فيما خمّن؟

في ذهنه تترابط الأحداث وتتصل الحلقات المفقودة ببعضها البعض.. إن كان ما ذهب إليه صحيحا فلا بدّ أن يبدأ بتنفيذ خطته هو في أسرع وقت.. لا بد أن يصل إلى الحقيقة..

الجهل عذابٌ حقيقي..

الغموض وسيلة تعذيب لا يعرفها إلا من خبِرها.. وهو خبِرها مع هدى في أكثر من مناسبة، وكأنها ما ظهرت في حياته إلا من أجل هذا..

صوت طرقات على الباب.. يدخل المهدي ومنير والأول يتساءل:

- ماذا هناك يا خالد.. أقلقتني فعلا.. لقد حمدنا الله أن هذا الموضوع انتهى بشق الأنفس.. ففيم تنبش مجددا؟

- أنا لا أفعل.. الحقائق تصرّ على أن تظهر لي نفسها بدون إرادة منّي..

- كيف؟ ما قضية تلك الصورة التي حدّثتني عنها في الهاتف؟

- تعاليا.. سأريكما شيئا..

يفرد خالد صورتي زهرليزا اللتين بحوزته.. يضع الصورة الأولى التي اشتراها من البائع المتجول..

- أتريان هذا الانحراف في في سواد العين اليمنى لزهرليزا؟

- هه.. ربما.. أعتقد..

- لا يجب أن تعتقد.. ركز النظر جيدا وستلاحظه..

- الحقيقة أنه واضح.. نعم، بؤبؤ العين اليمنى يتجه نحو الخارج بانحراف بسيط..

يضع خالد الصورة الشفافة فوق الصورة الأولى بدقة ويتراجع مفسحا المجال للمهدي ومنير كي ينظرا..

- الآن.. أنظرا إلى ذات العين.. ما رأيكما؟

يقترب المهدي ويدقق. منير يفعل نفس الشيء. يعيدان العملية. حائرين وغير راغبين في التصديق..

- باللّه عليك.. هذا المليمتر أو يزيد لا يصنع أي فارق، لعلّ اللوحة الأصلية تشوهت بشكل ما فقط..

- أبدا.. هذه ليست دلالات تشوه.. هذه ضربة ريشة في غير محلها.. ولو دققت أكثر ستتأكد..

- تعني أنك لاحظت هذا بينما المتحف الأمريكي بكل إدارته ومسؤوليه لم يفعل..

- عادي جدا يا منير.. لو راجعت الأحداث فستجد أن العملية كانت متقنة بدرجة لا تترك المجال للتفكير في عملية تزوير اللوحة مطلقا.. اللوحة تسرق من المتحف من طرف عصابة.. يتم ضبطها في بلجيكا مع الشخص الذي زار حارس المتحف- الذي هو المهدي - في نفس يوم السرقة.. بل وبكامل إطارها.. لاحظ معي أن التزوير متقن جدا وليس هناك أي خطأ سوى هذا الذي ذكرت، ولم أكتشفه سوى لولعي القديم بعينيْ زُهرليزا.. لقد أوشكت هذه العصابة فعلا على ارتكاب الجريمة الكاملة، لولا أن «الروح عزيزة عند اللّه» كما يقول مثلنا الدارج..

- هاها.. همْ لم يقتلوك..

- بل فعلوا ما هو أكثر.. قتلوا روحي وتركوا الجسد.. لكن أكثر الناس لا يبصرون..

- لا تضخّــــم الأمور..

- واللّه لا أفعل..

- طيب ماذا أنت فاعلٌ الآن؟! لن تبلغ الشرطة طبعا.. أنا أعرف تفكيرك..

- طبعا لا.. تريد بعد كل هذه الضجة أن أعود للظهور مجددا كاشفا عن أمر مريب جدا لا يكتشفه في الغالب إلا من زور اللوحة فعلا؟!! ستعود الشكوك لتتجه نحوي بالتأكيد.. وحتى لو فرضنا أنهم ضبطوا العصابة والمدعوة هدى.. فمن يضمن لي ألا تنتقم مني هذه الأخيرة وتدّعي أنني أنتمي إليها؟ أمامي الكثير من الأسرار لأحاول كشفها بنفسي قبل أن أصل إلى مرحلة تبليغ الشرطة..

- لا أحبّ نغمة الأفلام هذه..

- أنت محقّ.. لقد كان فيلما رائعا وأنا داخل السجن. لا تدري كم استمتعتُ..

- أوه.. عذرا.. لا أقصد يا خالد أن أقلل من قسوة ما مررت به.. لكنني لا أريد لك أن تتورط في أي شيء مجددا..

- ثق أنني لن أفعل.. بالمناسبة، لمن كان النصر؟ لك أم له؟

- انتهى الكلاسيكو بالتعادل لحسن حظنا.. هذا يعني أننا سننهي الليلة دون شجار..

- جميل.. ذلك ما كنـّـــــا نبغ..

يغادر المهدي ومنير. يعود خالد بذاكرته إلى لحظاته الأخيرة في السجن عندما كان يجمع حاجياته.. كان سمير و«الطمأنينة» في وداعه..

انتحى به «الطمأنينة» جانبا.. سلمه مظروفا في يده..

- هذه لك..

- ما هذا؟ لا لا أريد شيئا..

- الأيام الأولى بعد الخروج من السجن تكون صعبة..

- قلت لك لا أريد..

- لا أستشيرك..

مرّة أخرى، بصق على الأرض ثم لكمه مرتين في كتفه حتى كاد يسقط ..

- أنت رقيق المشاعر حقا يا «الطمأنينة»..

- يقولون..

يتنهد خالد وهو يتذكر تلك اللحظة الزاخرة بالمشاعر رغم كل شيء..

يفتح خالد المظروف. تصعقه المفاجأة إذ يجد أنه يحتوي على مبلغ عشرة آلاف درهم كاملة كهدية ومعه ورقة صغيرة مكتوب عليها «الصحافي رجل»..

يعترف أنه لم يعد يفهم شيئا..

هدى.. الحسناء الجميلة الرقيقة تحتفظ في داخلها بوحش كاسر يدمّر حياته..

«الطمأنينة».. الذي اعتقده فعلا وحشا كاسرا في البداية هاهو يظهر له أن بداخله ملاكا حقيقيا..

المظاهر.. المظاهر.. هذه كلمة السرّ.. يا الله كم تكون خادعة في أغلب الأحيان..

لا تنظر إلى الصّور.. أنظر إلى القلوب التي في الصّـــدور..

لا يغرنك تظاهر المتظاهرين..

روائح العطور.. الكلام المنمّق المختار بعناية.. التوقف قليلا حتى تصعد أنت أولا إلى المصعد.. الابتسامة المفتعلة..

وعند أول اختبار... هووووب... تأتيك الضربة من حيث لا تحتسب..

يخرج خالد ذلك الرقم الذي سلـّـمه له سمير بعد طلبٍ منه.. قال له أنه سيوصله إلى شخص يوصله إلى شخص..وهكذا، حتى يستّطيع الوصول إلى هدفه..

يجري خالد مجموعة من الاتصالات تحتوي على مجموعة من كلمات السرّ منحها إياه سمير، قبل أن يستطيع في الأخير الحصول على رقم شخص بعينه..

- آلو، السلام عليكم..

- وعليكم..

- أريد بعض السمك الطري..

- لا يوجد لدي سمك..

- لقد أرسلني ولد الحوّات..

- غدا على الساعة 8 صباحا بمقهى السعيدي بسوق كاساباراطا..

- هي اللي ماتعاودشي..

يلوّح خالد بالهاتف فوق الفراش.. يضع بعض قطع اللحم المرقّد لقطته في صحن. يعدّ كأس شاي منعنع.

يخرج صحن الحلوى الذي تركته له «عزيزة رحمة».. يبسملُ..

- تعاليْ يا «الحلوى د كيكس».. لك شوقٌ في القلب كشوقِ مغتربٍ لطنجة..

-23-

ما أصعب الاستيقاظ باكرا في طنجة.. كل من زار المدينة يعرف ذلك. لطنجة مناخها وأجواؤها التي تجعلك ترغب في البقاء في الفراش لمدة أطول.. يقولون أن الطنجاويين كسالى. الحقيقة أنهم فقط أبناء محيطهم ولا يد لهم في ذلك..

ليل طنجة الرائع يجعلك تسهر حتى وقت متأخر من الليل..

صباحها الناعس الذي يتمطّى بكسل يجعلك تؤخر استيقاظك لساعة أو ساعتين..

هي مدينة مدللة أبت إلا أن تدلل أهلها فما استطاعوا أن يمتنعوا عن ذلك وما استطاعوا لها رفضا..

ينتزع خالد نفسه من فراشه انتزاعا. أيّ موعد هذا الذي يكون في الثامنة صباحا؟! يغسل وجهه بالماء البارد آملا في بعض النشاط.. قطته التي تخلصت من عرَجها تنتظر وجبة صباح مبكرة مفاجئة.. يضع لها خالد بعض الحليب البارد. يلبس ثيابه على عجل ويغادر.

مقهى «السعيدي» ليس فارغا كما توقّع. هناك بضع عمال عابرين وبضع زبائن ذاهلين يشاهدون فيلما هنديا يقضي فيه البطل على أمة كاملة دون حاجة لأي تعب.. يفعل ذلك وكأنه في نزهة حقيقية.

في السابق، لو كان دخل هذا المقهى لالتفتت إليه جل العيون باعتباره «رجلا أبيضا رقيقا» تجرّأ على دخول مكان خشن لا يناسبه.. ولاستنكروا ذلك استنكارا..

أما الآن، فيبدو أن السجن قد ترك عليه أثرا ما لا يمحى.. سيماهُ على وجهه..

الساعة تشير إلى الثامنة. لأول مرة ينتبه أنه لا يعرف الشخص الذي اتصل به.. لا إسما ولا صفةً.. لكن، مؤكدٌ أن الآخر قادر على تعرفه كوجه جديد في المقهى..

- السلام عليكم..

أخيرا هلّ البدر. بدون مقدمات سحب كرسيا وجلس بقرب خالد مناديا على كأس قهوة بالحليب.

- وعليكم السلام.. أنت...؟

- نعم هو أنا.. من أرسلك؟

- قلت لك في الهاتف ولد الحوّات..

- جميل.. فلنبدأ من آخر الكلام أفضل..

- أفضّل هذا..

- لدي رحلة يوم الاثنين، أي بعد غد، وأخرى في بحر الأسبوع القادم..

- أريد الأولى..

- للأسف، لا يوجد مكان شاغر.. ستضطر لانتظار الرحلة الثانية..

- لماذا تخبرني بموعدها إذا كان الأمر قد قضي فعلا؟ أنت تتسلى على ما يبدو.. إذهب إلى الجحيم..

- ماذا قلت؟! كيف؟

- قلت: اذهب إلى الجحيم.. ولك هذه الإضافة كهدية: عليك اللعنة..

صرخ بها خالد في أذن ذاك الشخص مثيرا انتباه رواد المقهى. الارتباك ووقع المفاجأة يربكان جليس خالد. يتنحنح. يبتلع ريقه. يقول برنّة مختلفة محاولا ما أمكن أن يجعلها ودودا أخوية:

- إسمع يا أخي.. لا تكن سريع الغضب هكذا.. من الأفضل أن نتفاهم بهدوء..

- لا يبدو أنك مستعدّ لذلك..

استعاد خالد شخصيته التي اكتسبها في السجن. شعر أنه لو أظهر بعض الطيبوبة مع هذا الشخص فسيلتهمه كما تلتهم الأكَلة محتويات قصعتها. سيناوره. سيكذب عليه. سيسرق ماله. سيُشبعه وقاحةً وقلة أدب.

بدأ خالد يشك فعلا أنه يعاني من ازدواج في شخصيته. فهو نفسه لم يشعر كيف تحوّل من شخص هادئ إلى آخر متوحّش فجأة..

- طيب إسمع.. سأتدبر لك مكانا في الرحلة القادمة.. لكن لابد أن تزيدني ألف درهم على المبلغ الرئيسي.. صدقني سأضحي من أجلك..

- كلام جميل.. وما هو المبلغ الأصلي؟

- عشرة آلاف درهم..

- اتفقنا.. ترتيبات الرحلة؟

- سأشرحها لك بالتفصيل...

يركب خالد هو وعشرون شخصا آخرون سيارة نقل متوسطة الحجم من منطقة «المنار».

البدر مكتمل لكنه لا يظهر إلا على استحياء من حين لآخر خلف سحب ثقيلة. ابتسامته سمجة. لا تدري إن كان يبتسم أم يكشّـــر. هو البدر الذي يغيّر أمزجة الناس كلما اكتمل.. هو البدر الذي تعوي عند اكتمال استدارته الذئاب ويتحابّ العشاق تحت ضيائه.. فيكشر لهذا ويبتسم لذاك..

يتأمله خالد من نافذةٍ تجاوره.. يسبح به فكره بعيدا بعيدا..

هذه المرة لم يخبر عزيزة رحمة أين سيذهب، فقط طلب منها أن تعتني بالقطة وبالشقة حتى يعود. لم يترك لها الفرصة لتسأل أو تودّع.

لا مزيد من لحظات الوداع الأليمة.. هكذا قرّر.. كل شيء ينبغي أن يتم بسرعة وحسم.. دع تلك المشاعر تتراكم بالداخل الآن حتى يأتي يومٌ يفجّرها فيه... أو تفجّره هي..

المهدي ومنير أخبرهما بما يعتزم فعله، لكنه لم يخبرهما بأية تفاصيل.. ولا حتى بموعد سفره..

سفره؟ يبتسم ابتسامة هازئة. يا له من سفر على أمواج قارب مطاطي (باطيرا).. سفر بدون عودة في الغالب.. هجرة سرية كان يقرأ عنها ويتأسف لأصحابها، والآن هو يفعلها..

كم تغير الظروف والأيام قناعات البشر.. الحمقى فقط هم من يعتقدون أنهم في منأى عن تقلّبات الزمن..

كان يعرف أنه لن يستطيع استعادة جواز سفره الذي أخذوه منه في بلجيكا.. ولو استصدر جوازا آخر لوجد نفسه أمام عقبة تأشيرة «شنغن» التي يستحيل أن يمنحوه إياها بعد ما حدث.. ولو فعلوا، بمعجزة ما، فسيكون قد مرّ زمن طويل تفتر معه همّته، ويفرّ الفارّون والمتآمرون عليه بغنيمتهم.. وهذا ما لا يستطيع أن يحتمله إطلاقا..

تتوقف السيارة قرب منطقة جبلية تنحدر نحو شاطئ رملي ضيق محاط بصخور من الجانبين. قال له السمسار السابق أن اسم الشاطئ هو «مريسة د المعاز».. وأن القرية اسمها «حسّانة»..

يأمرهم السائق بالنزول..

- هيا ستنزلون مباشرة نحو الشاطئ وستجدون هناك « السي ميمون» بانتظاركم..

السي ميمون حسب التعليمات هو قائد القارب. وهو، ابتداءً من اللحظة سيكون الآمر الناهي. ينزلون المنحدر تباعا..

إشارات ضوئية متقطعة تسطع في عيونهم فيتجهون نحوها..

- أنا السي ميمون.. هيا إصعدوا بسرعة..

تكدسوا جميعا في القارب الضيق. يتأكد خالد من أنه لم يفقد حقيبته البلاستيكية بعد. يتحسس المبلغ الذي ربطه بشريط لاصق حول صدره. كل رأسماله الذي كان قد تبقى له من سفره إلى بلجيكا إضافة إلى هدية «الطمأنينة».. كان قد حولها إلى أوراق من فئة 10 أورو..بهذا الشكل يضمن أنها لن تضيع دون أن يشعر.. يحسّ بثقلها ووجودها في ذاك الكيس حول صدره.

يزأر المحرك وينطلق القارب. يقول لهم السي ميمون مادحا نفسه إنه ذكي جدا لأنه لا أحد يتوقع أن «يحرِك» المهاجرون لحظة اكتمال البدر.. فكلهم يختارون الليالي المظلمة. بينما هو خالف المألوف واختار ليلة مقمرة لكنها غائمة.. هكذا يخدع حرّاس السواحل ويستفيد من ظلمة ليلٍ غائمةٍ سماؤُه.

البحر هادئ. طنجة تبتعد مرّة أخرى. غصّة كبيرة في حلق خالد وقلبه لكنه يقاوم. لأول مرة يتفرس في وجوه من معه تحت ضوء قمر يختفي ويظهر.

ربعهم تقريبا مغاربة. الباقون كلهم من دول جنوب الصحراء بينهم ثلاث نساء.. أثارت إحداهن انتباهه. بطنها منتفخ بشكل ملحوظ. حاملا كانت. فكر أنها على وشك الولادة فعلا.

أحدهم يدندن بأغنية إفريقية ما. لا يفهم خالد من الكلمات شيئا، لكنه يشعر بها.. الغربة، الألم، الوحدة، الوطن القاسي. لا تحتاج لمترجم لتفهم هذا. يكفي الشجن في صوته.

الصمت يغلفهم من جديد. صوت القارب وحده يعزف سمفونية الحياة... أو الموت.

-24-

ظلام حالك مُقبض كحفرة قبر.. لاشيء يُرى ولا شيء يُسمع..

صوت محرك القارب وصوت تنفس «الحاركين».. وصوت أمواجٍ بدأت تعلو تنزل بالقارب شيئا فشيئا، إذ يوغل في عمق مياه المتوسط..

أضواء طنجة اختفت أو كادت. أضواء شاطئ طريفة الإسبانية، التي كانت تبدو على مرمى قارب، غارت من أختها فاختفت عن الأنظار هي الأخرى.

غيوم سود كثيفة غطّت نور القمر فاكتمل المشهد المأساوي بكل تفاصيله..

هي المياه فقط تحيط القارب وأهله ذات اليمين وذات الشمال..

من حين لآخر يحاول أحد المهاجرين أن يضيء العتمة بهاتفه المحمول فينهره السي ميمون بصوت كالفحيح أن أطفأ هاتفك وإلا رميتك وإيّاه من القارب. لا مجال للمزاح والتساهل هنا. إن كنتم تريدون الوصول بأمان فالتزموا التعليمات بدقة. هكذا يقول السي ميمون ثم يتأفف ويواصل القيادة بوجه قدّ من صخر.

أسنان أغلب الموجودين تصطكّ إذ يبدأ البحر في فرض سطوته الباردة على المكان والزمان. الكلمة كلمته.. الملعب ملعبُه.. وهم كأيتام في مأدبة لئام.

يتذكر خالد أن أمّه كانت دائما تحذره كلما ذهب للاستجمام في شاطئ طنجة:

« ثلاثة لا تمزح معهم أبدا: النار والمخزن (السلطة).. والبحر»..

الأولى والثانية لم يكن يهتم باللهو معهما في الحقيقة... لكنه كان يمزح كثيرا مع بحر طنجة.. كثيرا جدّا. كان يبتعد عن الشاطئ كثيرا متحدّيا أقرانه : هل منكم من أحدٍ يستطيع مجاراتي؟ فلا يتلقى سوى الصمت أو صدى صوته كإجابة.

لم يكن بحر طنجة قاسيا معه يوما.. كان يتقبّل حماقته وطيشه بمزيد من الصبر والحِلم، ولا يذكر أنه كان يوما على وشك الغرق..

سمع قصصا كثيرة عن سبّاحين مهرة غرقوا لأنهم وثقوا بالبحر.هو لن يكون منهم. كان يقول لنفسه. هذه أشياء تحدث للآخرين فقط.

هل هذا البحر هو هو ذاك الذي كان يداعبه؟ لا يبدو له كذلك إطلاقا.

يشعر برجفة باردة تسري في جسده هو أيضا. يحاول، بمشقة شديدة، أن يقاوم اصطكاك أسنانه وارتعاد كفّيْه.

البردُ يزداد قسوة، والوقت يمرّ كأنه حلزونٌ مكتئب!

تمرّ بقربهم باخرةُ مسافرين عائدة من أوروبا نحو طنجة، فيطفأ السي ميمون المحرك ويترك القارب يتهادى.

أغلب من ضبطهم الحرس المدني الإسباني كانوا ممّن لم ينتبهوا إلى أن هذه البواخر قادرة على ملاحظتهم وبالتالي التبليغ عنهم.

الحقيقة أن السي ميمون رجلٌ حكيم جدّا ويتقن ما يفعل.

تعبر الباخرة بسلام. يشتغل المحرك من جديد فيتململ الجالسون وكأنهم رأوا جميعا عزيزا كانوا قد فقدوه.

هناك، في عمق البحر المظلم، في ليلة غائمة، في قارب يحيط به الموت من كل جانب. يبدو صوت محرّك قاربٍ أفضل أنيس يحكي لك حكاية قبل الموت الأصغر.. أو الأكبر.

ستّ ساعات كاملة مرّت قبل أن تبدو أضواء شاحبة لقرية إسبانية..

يوجّه خالد كلاما هامسا لـ«السي ميمون»:

- قال لي السمسار أنك ستوصلنا إلى «بلايا دي بولونيا».. أليس كذلك؟

- صحيح.. لقد مرّ كل شيء على ما يرام.. وإن استمر كذلك فلا يفصلنا عنها سوى 20 دقيقة تقريبا..

- رائع..

ليس رائعا طبعا.. لأن السحب الغيوم كانت قد ملّت من لعبة حجب القمر وقررت أن تنتقل إلى مرحلة الجدّ..

ضوء البرق.. هزيم الرّعد.. فأمطار قويّة تبلل الجميع..

يحاول البعض، عبثا، تغطية الرؤوس والأجساد فيفشلوا.. السي ميمون يفقد لأول مرّة ذلك التعبير الجامد الواثق الذي كان مرسوما على وجهه.. يقول:

- يبدو لي أننا نفقد وجهتنا..

- لماذا ستفقد وجهتك.. هاهي أضواء الشاطئ.. فقط اتبعها..

- لو سكت الجهلة لقلّ الجدل؟ هذا شاطئ صخري، وينبغي القيادة فيه بمسار معلوم وإلاّ...

وجاء الجواب سريعا وعمليا.. صوت مرعبٌ قوي أتى من قاع القارب وكأنه ارتطم بجسم صلب.. اختلط الحابل بالنابل وتداخلت الأجساد إذ رمتها الضربة القوية..

خالد يشعر بقدم قوية تدوس وجهه.. مرفق أكثر قوّة يغوص في معدته.. يكافح ما أمكن كي يستعيد توازنه فقط ليكتشف أن المياه قد بدأت فعلا تتسرب من ثقب أحدثته صخرة حادّة على ما يبدو..

قبطان السفينة هو آخر من يغادرها. هذا هو ما قرأه خالد. لكن السي ميمون لم يفعل. هكذا كان هو أول من قفز فارّا بجلده بدون أي مقدمات..

- أيها الجبان..

كذا صرخ خالد وهو يتابع السي ميمون الذي كان يسبح بمهارة كبيرة في اتجاه الشاطئ.

مأساة إغريقية من مآسي القرن الواحد والعشرين تبدأ. . تقرأ عن مهاجرين سريين عثروا عليهم وقد التهم السمك أعينهم فتتأسف وتترحم عليهم ثم تقول حكمة أو حكمتين حول الحياة وتمضي..

الآن، أنت واحدٌ منهم.. لا شيء في الحقيقة يحدث للآخرين فقط.. كلّ شيء يحدث للجميع.. فقط أنت لا تعرف متى ولا أين قد تكون من «الآخرين»...

القارب يغوص بشكل كامل في البحر ويبدأ الهلعُ المرعب الذي يودي بحياة من يجيد ومن لا يجيد السباحة.. الغرقى يتشبثون بأي شيء.. يعرف خالد هذا جيّدا.. وخبره مرّة أو مرّتين في طنجة عندما أنقذ أشخاصا كانوا على وشك الغرق..

وقتها كان محظوظا لأنهم استجابوا لطلبه بالهدوء.. الآن هو لا يعلم حتى من يخاطب..

كان أول قرار اتخذه هو أن غاص تماما في الماء البارد محاولا الابتعاد ما أمكن عن مكان الحدث..

يحبس أنفاسه.. يفتح عينيه في لجّة البحر فيجد أن الأمر سيان.. سواءٌ أفتحت عينيك أم لم تكن من المحدّقين.. فقط هو الظلام يجيبك في كل محاولة..

أخيرا يصعد برأسه من الماء ويلتقط أنفاسه.. فكرته نجحت نوعا ما.. فضجيج المستنجدين يأتيه من بعيد..

يذهب لإنقاذ أحدهم؟ ستكون أكبر حماقة ارتكبها قبل أن يلتحق ببارئه..

صوت أنفاس ثقيلة يشعر بها بالقرب منه.. يستدير ويدقق النظر ليجد أن المرأة الحامل بالكاد تقاوم لتبقى فوق الماء.. كيف قطعت كل تلك المسافة؟!

كانت تنظر إليه برجاء.. لم تقل أي شيء.. فقط تستعطفه بعينين أتخمهما الرّعب..

- ضعي يديك فوق كتفي برفق.. برفق.. وسيكون كل شيء على ما يرام.

أتراها فهمته؟ فعلت أم لم تفعل، المهم أنها استجابت.. يبدأ خالد السباحة مسترشدا بأضواء الشاطئ التي تكسرُ أنوارها قطرات المطر..

يسبح ويسبح.. الشاطئ ثابت في مكانه لا يتزحزح..

يواصل السباحة بنفس الوتيرة.. بنفس القوة.. لم يعدْ يشعر بأي شيء إطلاقا..

آلة سباحة تحاول أن تنجو هي ومن معها.. كذا كان حاله..

لا يدري إن كانت المسافة قد ضاقت فعلا بينه وبين الشاطئ لكنه شعر أن قواه بدأت تخور أخيرا. بالكاد يستطيع رفع يديه. لا يشعر بكتفيه إطلاقا.. قدميه تجمدتا من شدة برودة المياه..

كفّـــا المرأة متصلبتان تماما فوق كتفيه..

تنهار عضلاته وهو يحاول ويحاول..

يفكر في الاستسلام ثم يستعين بما تبقى من الأدرينالين وغريزة البقاء ليجدّف بيديه من جديد..

أتـُــراها النهاية؟ أيّ أحمق كنت إذ استمعت لصوت الانتقام والكراهية يا خالد؟ لئن لم يرحمك الله لتكونن من الهالكين..

يرفع عينيه إلى السماء ويدعو الله.. يدعو ويدعو بما يحفظ وبما توحيه اللحظة...

أهي رمالٌ هذه التي لمستها قدماه؟؟ أفعلا هو الشاطئ أخيرا؟

لا أحد يملك الإجابة سوى خالد الذي لم يعد يشعر بأي شيء فعلا...

المرئيات تغيب.. ظلام شديد يحيط بعينيه ثم بعقله...

ثم انتهى كل شـــــــــــــــــــــــــيء.

-25-

لم يكن هناك سوى الألم وطعم الماء المالح..

ملوحة لاذعة وجفاف في الفم حتى أنه بالكاد كان يبتلع ريقه..

أين أنا؟ يتساءل خالد. كل هذا العطش لن يطفئه سوى كأس كبير من الماء قبل أن أعود إلى النوم..

يفتح عينيه. يبدأ في استعادة وعيه وإدراكه لذاته والموجودات. الليل سيد الموقف والصّبح لازال لم يحاول بعدُ أن يتنفـــــــّــــــس.

لن تكون هناك عودة إلى النوم لأنك يا خالد لم تكن في كابوس. بل هي الحقيقة الفجّة المؤلمة الممتزجة ببعض الفرح.. لقد استطعتَ النجاة من الغرق على ما يبدو!

يعتدل خالد في جلسته.. كل جزء من جسده يئنّ ويصرخ من الألم والتعب. يدير عينيه في الشاطئ محاولا اختراق حُجُب الظلام فلا يبدو له طير يطير أو حيوان يدبّ.

- أغرق الجميع يا ترى؟! أتراني الناجي الوحيد؟

ومن ذا يستطيع الإجابة؟ لا أحد. المطر يواصل هطوله بإلحاح وحماس. ثقل رهيب يضغط على كتفيه. يتحسسهما فيكتشف أنه فقط ثقلُ حقيبته البلاستيكية التي يبدو أنه لم يفقدها. لازالت تتشبث بكتفه كرضيع غوريلا. المال أيضا لازال في مكانه.

لم يضع منه شيء رغم كل تلك الفوضى.. سيتأكد فيما بعد إن كانت المحتويات على ما يرام، أما الآن فأول ما ينبغي أن يفعله هو مغادرة الشاطئ بسرعة قبل أن يكتشف الحرس المدني الإسباني الأمر وتبدأ عملية البحث عن الناجين.. وما أقلّهم.

هل هذا جسدٌ مسجّى أم أنه فقط يتخيل؟

يدقق النظر أكثر وهو يقترب ليجد نفسه أمام تلك المهاجرة الإفريقية الحامل التي أنقذها من الغرق. يقترب أكثر.

- هيه.. أنت.. إنهضي بسرعة.. لقد نجّانا الله، لكن أي تأخير ليس في صالحنا..

يصفعها على وجهها برفق، ثم بقوة. لا استجابة.

- لا.. لا تفعليها بالله عليك.. لم تعبري كل هذه الصعاب وتنجي من الغرق لتموتي بهذه البساطة على شاطئ قارة أخرى.

يتحسس وريدها. يضع أذنه على صدرها. لا أثر لأي دقـّات. يرتبك. لا يدري ماذا يفعل. يتذكر بضع دروس كان قد تلقاها من جمعية طبية أثناء دراسته الثانوية. يضع كفه على أصابعه ويضغط على صدرها..

1..2..3..4..5..

هيا ..هيا...

يفتح شفتيها وينفخ محاولا إنعاش رئتيها.. هيّا يا قبلة الحياة.. كوني اسما على مسمّى وامنحي هذه المرأة حياة جديدة..

لكن المرأة لا تستجيب. لقد رحلت. لن تستأخر ساعة ولن تستقدم. لقد قضي الأمر ببساطة..

يجلس خالد بقربها وهو يبكي بكاء حارّا مسموعا.

كم من الكلومترات قطعت هذه المرأة باحثة عن حياة أفضل؟ بماذا ضحّت؟ بمن ضحّت؟ أي أحلام كانت تخبأ في صدرها؟ كم شخصا من أسرتها تركت وراءها ينتظر أن تعود محمّلة بغنائم القارّة العجوز؟

ماذا بقي أكثر لتعيشه يا خالد؟

خلال شهور فقط رأيت السجن والحياة والموت. أنت الرجل الذي كانت حياته تسير بروتين واحد مملّ، يغيّر ملمتر واحد دفة مركب حياته نحو مسار ما اعتقدت يوما أنك قد تعيش عُشره.

هل فعلا تحرك الجنين في بطن أمه أم أنهما الشتاء والدموع تلعبان لعبتهما في خداع بصره..

يخرج هاتفه المحمول الملفوف بعناية فيجده لازال يعمل.. ورغم خطورة الحركة التي قد تكشف أمره يلقي خالد الضوء على بطن المرأة الذي كان قد تعرى تماما، فيكتشف فعلا أن هناك حركة خفيفة يقوم بها الجنين من الداخل..

- يا الله.. لا تقل لي أنك لازلت حيّا يا ولدي..

ما العمل ؟ ما العمل؟

الاتصال؟!! بمن؟ كيف؟ وهل سيصبر الجنين حتى يقوم بكل هذا؟

القرارات السريعة هي الحلّ في هذه المواقف.. يخرج خالد سكينا من حقيبته.. صغيرة لكن حادّة.. ويقوم بواحد من أجرأ وأجنّ القرارات في حياته على الإطلاق..

- باسم اللّه..

يده ترتعش بقوة .الضربة الأولى لم تحدث سوى خدش بسيط في بطن المرأة...

يحاول التركيز أكثر وهو يرفع رأسه راجيا ربّه..

يضغط أكثر ويحرك السكين ببطء.. سائل الحياة - الذي لازال لم يتجمد بعد - يسيل إذ تنفتح البطن شيئا فشيئا..

يمسك الهاتف بفمه كي يستطيع تحريك يديه بحرية. هو نفسه لا يصدق أنه يقوم بما يقوم به..

ليل.. مطر... دموع.. بحر.. ألم.. موت.. حياة...

يبدو له كيس الجنين من بين مطر ودم.. فيزداد جرأة.. يفتح بطن المرأة بكفيه أكثر وأكثر..

هذه أغرب وأقسى عملية قيسرية.. فلتسجل ذلك أيها التاريخ..

يبدو له الآن كيس الجنين كاملا بينما هذا الأخير داخله يركل ويركل.. أتراه يختنق؟

يمزق خالد الكيس فينزل السائل الأمنيوسي الذي كان يغطي الجنين.. هذا الأخير يطل برأسه صامتا خامدا..

يخرجه خالد. قطعة لحم طرية لا تحرك ساكنا.

- أرجوك لا تفعلها أنت الآخر.. أرجوك أرجوك..

لا يمتلك خالد أي معلومة عن كيفية التعامل مع الوضع سوى ما شاهده في بضعة أفلام. هل ذلك هو ما ينبغي عمله أم أنها خدعة أخرى من خدع الأفلام التي تصرّ على أن الإصابة بجرح غائر ليست سوى متعة بالنسبة للبطل الذي يلحس الدم السائل منها قبل أن يواصل التخلص من الأشرار؟

يرفع الجنين من قدميه.. يضربه بشكل خفيف على مؤخرته..

واااااااااااع...

ويطلق الكائن الصغير الأسمرُ الجلد صرخته الأولى..

يخرج خالد إحدى قمصانه الجافة من الحقيبة ثم يقطع الحبل السّري بسكينه قبل أن يلف المولود فيه..

الرضيع لا يكف عن الصراخ الحادّ.. يبكي لأنهم أخرجوه من هدوء وظلام وسكينة إلى فوضى وألم..

يضمه خالد بقوة إلى صدره ملتمسا له بعض الدفء.. يركب رقما ويتصل...

- أهلا معاذ.. هل أنت في المكان الذي اتفقنا عليه؟

- نعم، هل وصلت فعلا؟ الحمد لله على السلامة.. يالك من رجل ..يا لك من رجل.. هيا أسرع أنا أنتظرك داخل سيارتي..

يجري خالد وهو يحمد الله في سره أن كل هذا الصخب لم يلفت انتباه أحد.. المسافة طويلة بين الشاطئ وبين أول طريق للسيارات.. قضى حوالي عشر دقائق وهو يعدو قبل أن يصل إليها.. المكان مقفر ولا أثر لأحد..

يلهث بقوة وهو يعاود الاتصال فينقطع الخط من تلقاء ذاته..

أضواء سيارة قادمة. أتراه معاذ؟

نعم هو. أبطأ معاذ سرعة سيارته وهو يطلب من خالد الركوب بسرعة..

- مرحبا بك أيها «الحراك.. ماذا.....

تجحظ عينا معاذ إذ يلحظ ماذا يحمل خالد في يده..

- لا تقل لي أن هذا يحدث فعلا..

- لا أريد أن أسمع أي حكمة الآن.. استعمل جهاز تحديد المواقع للعثور على أقرب مستشفى في كاديس.. هيا..

بيد مرتعشة يشغل معاذ الجهاز..

- هاهو واحد على بعد مئات الأمتار فقط.. ماذا تنوي...

- أرجوك أجّل الأسئلة وانطلق بسرعة..

الرضيع لا يكف عن الصراخ. يخرج خالد من حقيبته قطع حلوى كان يقتل بها الجوع في طريق هجرته.

- لديك منديل نقي؟

- هناك في المقعد الخلفي.. لكن..

يلتقط خالد المنديل ويلق قطعة الحلوى فيه ويدسها في فم الرضيع..

تدريجيا يخف صراخه.. يمتص المصّاصة التقليدية التي صنعها خالد وهو يفتح عينيه..

عيناه واسعتان جميلتان جدا.. يبتسم خالد له..

- قف بعيدا عن المستشفى بحوالي شارعين..

- وهو كذلك..

ينزل خالد، وهو يحجب وجهه بقميصه. يتجه مسرعا نحو باب المستوصف. المكان خال تقريبا.

يضع الرضيع الملفوف بعناية أمام الباب.. يبتعد قليلا. يحمل حجرا ثم يرميه على باب المستشفى الزجاجي..

كراااااش..

الصوت القوي يبدو كقنبلة ذرية هزّت المكان الهادئ..

يعود خالد بسرعة أكبر هذه المرة. يفتح باب السيارة الخلفي ثم يتمدد فوق المقعد..

- انطلق الآن على بركة اللّٰه..

- طيب، ماذا حدث بالضبط..

- يخرج الحيّ من الميت..

- أقصد التفاصيل.. خالد... خالد...

لكن خالد كان قد استنفذ آخر عضلة.. آخر مجهود.. آخر خلية من جسده.. لقد نام!!

-26-

- لقد نجا يا معاذ.. لقد نجا!

يأتي معاذ قادما من المطبخ وهو يمسح يديه في قميص ممزق لفه كيفما اتفق حول خصره اتقاءً لمياه غير مرغوب فيها..

- كيف عرفت ذلك..؟!!

- أحد المواقع الإخبارية الخاصة بمدينة كاديس نشر خبرا مفصلا عن الموضوع..

- هل لك أن تلخص لي المكتوب هناك فعلاقتي مع اللغة الإسبانية لم تكن يوما علاقة مودّة..

- ولا أنا.. لكن الشيخ العارف جوجل قام بمهمّة الترجمة عني..

- اللهم بارك لنا في شيخنا.. الخلاصة؟

- يقولون أن كاميرات المستشفى رصدت مجهولا قام بوضع رضيع قرب باب المستشفى قبل أن يكسر بابه الزجاجي ويفرّ.. الرضيع كان في حالة اختناق بسبب قطعة حلوى ذابت وتسربت من منديل صُنع على شكل مصاصة.. ثوان فقط كانت تفصله عن الموت لكنهم استطاعوا إنقاذه أخيرا..

- لقد أحييْت الناس جميعا..

- بل أنت من فعل ذلك مرّتين.. رحلة ذهاب وإياب مدتها ثلاثة أيام تقريبا بين بروكسيل وكاديس والعكس فقط لإحضار صديق «حرّاك» لا تدري إن كان سينجو أم لا.. ثم التورّط في قضية هذا الرّضيع معي.. والتي كان يمكن أن تخسر معها كل شيء فعلا لو تم ضبطنا..

- لم تقل لي بالمناسبة، هل تعرفوا على ملامحك أو أشاروا إلى ذلك؟

- لا زلت تكره المديح كما عهدتك.. طيب، محاولة إخفاء وجهي وكفيّ كانت ناجحة على ما يبدو.. هم يشكون أن من فعل ذلك هو والده أو أحد أقاربه على الأقل.. طبعا لم يجدوا صعوبة في الربط بين الموضوع وبين الإفريقية التي وجدوها ميتة في شاطئ لا بولونيا.. تقرير الطبيب الشرعي يفيد فعلا أنها توفيت فعلا قبل ولادة الجنين!! اللهم لك الحمد..

- الحمد لله.. والله قصة غريبة جدا يا خالد.. لو حكيتها لأحد لاتهمك بالخَرَف أو الجنون.. ولولا أنني عشت جزءا منها معك لكان لك نصيب من شكّي أيضا..

- أعرف أنك لا تجامل..

- صديقك من صدَقك لا من صدّقك.. سأنهي هذه الأواني وستدع ذلك الجهاز قليلا وتذهب معي لمقر عملي كي تغيّر الأجواء قليلا..

- تعتقد أنها فكرة صائبة؟

- جدّا.. ستستمتع بالتشفي في صديقك معاذ المجاز في القانون الدولي وهو يغسل الصحون في المطعم..

- هذا ما لا أستطيع عليه صبرا..

المغاربة كُـــثر في بروكسيل. شارع «برابون» ذكر خالد بـــ«بوليبار» طنجة، حيث الحركة الدائبة التي لا تنتهي.. رغم مرور يوم كامل على قدومه لازال خالد غير مصدق أنه قد فعلها أخيرا وتمكن من تحقيق المرحلة الأولى من خطته. لا يدري أكانت الأصعب أم الأسهل؟ الأيام القادمة وحدها تمتلك الجواب.

«الساحة الكبرى» ببروكسيل تمتلأ حياة. أناس وسياح من كل الأجناس. بعضهم يعرض مواهبه وبعضهم يتمشى وآخرون يجلسون بالمقاهي المحيطة بالساحة. شمس مارس الدافئة تغري الأوروبيين خصوصا بنزع نصف ملابسهم.. بالنسبة لهم، همُ الذين ألفوا برودة الجوّ، هذا دفء.. بالنسبة له هو، الذي تعوّد على اعتدال الجوّ، فالتخلص من الملابس يعني نزلة برد..

يمرّان عبر مجموعة دروب تحفها المطاعم من كل جانب.. أخيرا يلج معاذ أحد المطاعم فيتبعه خالد.

- لن يطردك صاحب المطعم لأنك حوّلت المطبخ إلى مزار سياحي لـ«الحاركين»؟

- «بيتر» يهمّه أكثر عدد الأوروات التي سيعدّها ليلا.. يمكن أن تحضر هنا وحيد قرنٍ ولن يمانع إن كنت ستؤدي عملك على أكمل وجه..

لم تختلف الأجواء كثيرا بالداخل. العاملون بالمطبخ جاؤوا من كل بقاع الدنيا باحثين عن فرصة.. عن أمل.. عن حياة أفضل.. لا يبالون كثيرا بوجود خالد إلا عندما يبدأ معاذ عملية التعارف. يفكر خالد أن الناس هنا ملـــّــوا الآخرين. كل ما يريدونه على ما يبدو هو أن يُتركوا وشأنهم.. المبدأ واضح جدا: عش حياتك ودعني أعش حياتي.. ولكل وجهة هو مُولـــّــيها..

جنسياتهم مختلفة.. طالب بلجيكي يعد البيتزا.. منظفة بلغارية.. وطباخ جزائري.. يتعاونون بشكل جيّد. تشعر أن هناك جمودا في المشاعر رغم بعض

النكات المتبادلة ومحاولات التظرف. هؤلاء الناس واقعيون إلى درجة البراجماتية. يمزحون ويتعايشون مادام في ذلك خير لهم، لكنهم بمجرد ما يغادروا المكان يوما فلن يتذكر أحدهم الآخر أكثر من ثانية أو ثانية ونصف.

صوت شبيه بالجرس يأتي من مكان ما..

معاذ يضرب الأرض بقدمه ويسب أشياء كثيرة وأناسا أكثر..

- ماذا هناك؟ لم كل هذا الغضب؟

- صوت هذا الجرس يعني أن دفعة جديدة من الأواني قد أرسلت من الأسفل.. أنظر إلى هذا الجمال..

يرفع معاذ ما يشبه النافذة الحديدية فتكشفُ عن أوان متراكمة متسخة..

- أساعدك؟

- أبدا.. لقد تعوّدت..

- هذا واضح..

يواصل معاذ عملية التنظيف وهو يلعن..

يلعن الأواني.. يسبّ المطعم.. يشتم «كارلا»، الفتاة التي ترسل له الأواني..

يلعن الجامعة.. يسبّ القانون الدولي.. ويشتم الدراسة كلها..

- قل لي بالله عليك ما جدوى كل ذلك التعب و الكلل ما دمنا في الأخير سنغسل الأواني مثلما يعرف أيّ شخص أخرق آخر أن يفعل...

يصمت خالد ولا يجيب..

تعلّمَ أن كل ما ستقوله لشخص يُعاني لا يساوي شيئا.. كل حكمك ونظرتك للحياة احتفظ بها لنفسك أفضل لأنك ستحتاج أن تطبقها يوما عندما ستجد نفسك في موقف مشابه.. وغالبا ستفشل في التطبيق.. لذا أطبق شفتيك أفضل.. من يده في النار ليس كمن يده في الماء..

هو، في كل الأحوال، يعلم أن معاذ لا ينتظر إجابة.. هو يفرّغ غضبه كي لا ينفجر.. وغالبا، لو لم يكن خالد معه لقام بتوجيه الحديث إلى الأواني أو أي شيء يجده أمامه...

- إذن، فهدى تلك هي من وراء كل هذه المصائب.. أستغرب كيف لم تخبرني من قبل؟

- لم يكن ذلك ممكنا سوى عبر رسائل السجن، والتي - كما تعلم - تُقرأ كلها.. وأنا لم أكن وقتها أريد توريطها في أية مشكلة.. لهذا لم أشر إليها لا من قريب ولا من بعيد..

- وماذا أنت فاعلٌ الآن؟

- لديّ بضع مخططات في ذهني لكنني محتاجٌ لئلا أتسرّع.. لقد بذلت كل هذا الجهد فقط لأنني لا أريد أن أقوم بأية حركة متشنجة متسرعة تكشف تحركاتي فيفرّ من يفرّ.. أو يقومون بأخذ الاحتياطات.. فأظل عاضّا على يدي من الغيظ ما تبقى من حياتي.. لقد قام هؤلاء بواحدة من أفضل السرقات التي رأيت في حياتي وذلك بتطبيق مبدأ «إن كنت تريد أن تحتفظ بما سرقت فأقنع من سرقته أن بضاعته ردّت إليه..»..

- الغريب أنك لازلت تحتفظ بصفاء الذهن هذا رغم ما مررت به..

- المحن تعصرك.. فإما أن تفرز منك زيتا ينتفع به البلاد والعباد، أو قشورا تذروها الرياح.. تصوّر معي أنه كان في مخططي أن أنتقم من هدى بأبشع الطرق التي قد يبدعها عقلي وشيطان نفسي، فإذا بطفل إفريقي يولد بين يديّ يقضي على تلك الرغبة تماما.. لقد رأيت بنفسي أيّ جناح بعوضة هي هذه الحياة.. لقد زهدت في الانتقام لكنني لم أزهد في رغبتي في استعادة طنجتي.. أقصد لوحة «زهرليزا»..

- وكيف ستفعل ذلك؟

- أمامي طريقتان، الأولى عن طريق إيجاد هدى شخصيا.. والثانية عن طريق التسلل لبريدها الإلكتروني الذي أعرف حسابه من خلال هاتفها..

- الخيار الثاني كان ممكنا من طنجة ولم يكن يتطلب السفر..

- طبعا لا.. أنت تعرف أن شركات البريد الإلكتروني تحتاط لهذا الأمر.. سيرصد برنامجهم أنني من دولة أخرى، وسيحاولون التحقق من شخصيتي قبل السماح لي بالدخول، وهو ما سأفشل فيه طبعا.. وعندها سيرسلون رسالة تحذيرية لهدى مفادها أن هناك من يريد التسلل لبريدها وسيحددون لها المنطقة بالضبط.. وسأكون عندها قد سقطت في المطبّ الذي لا أرغب فيه إطلاقا.. أما هنا، فالبرنامج لن يطلب شيئا ما دمنا نستعمل البريد من نفس المنطقة.. وحتى لو طلب فمعي واحد من أخطر مخترقي البريد الإلكتروني في العالم... السي معاذ!!

- لا أدري إن كنت لا زلت أتقن ذلك الهراء..

- أنت أبرع من يفعل ذلك.. ولازلت بالتأكيد..

- أخجلتم تواضعي..

ينهي معاذ عمله. الساحة الكبرى بدأت تخلو تدريجيا من مرتاديها إذ يقترب الليل من الانتصاف. يتمشيان الهوينى وخالد يجول ببصره فيما حوله. بروكسيل لا تبدو نظيفة جدا رغم رونقتها الأوروبي الذي لا يخفى على العين. ليلها جميل وذو ألق. كل المحلات التجارية أغلقت أبوابها. هي إذن ليست مدينة ساهرة كطنجة. معاذ قال له أن السهر هنا له أماكنه الخاصة. من أراده فليقصدها. تذكر أن طنجة تسهر بدون حسيب ولا رقيب. الكلّ يسهر في كلّ مكان وفي أيّ وقت دون ضابط للأسف.

شقة معاذ صغيرة وأنيقة. يبتسم خالد إذ يرى الحالة التي تركا عليها الشقة قبل المغادرة.. أحيانا تحتاج الخروج والابتعاد لتكتشف أي فوضى تتركها وراءك.

يجلسان إلى الجهاز. يسلم خالد حساب هدى لمعاذ. هذا الأخير يقوم بأكثر من عملية.. يندمج تماما في عالم يبدو أنه كان مشتاقا له فعلا.. يصدر أصواتا غريبة من فمه وكأنه يتلذذ بطعم ما..

- كأنك تستعيد طعم ذكرى ما..

- واللّه هو ذلك.. اشتقت إلى هذا الشغب الإلكتروني... حسنا.. دقيقة... هووووب... إفتح يا سمسم...

البريد الإلكتروني لهدى يراود خالد عن نفسه.. يدعوه ليغوص ويعرف الحقيقة، كل الحقيقة.. بينما خالد، المتوتر كـــــنُــــشـّــاب قوس، يجاهد بالكاد لمنع كفه اليسرى من الارتجاف هو يتساءل:

- ألا زلت تحتفظ لي بمفاجأة أخرى أيها القدر؟

-27-

يقيم الدكتور «برنار جانسنز» في بلدة واترلو البلجيكية. يمتلك فيلا صغيرة أنيقة. وهو رغم وحدته يبدو سعيدا، راضيا عن حياته في نظر الجميع.. في نظر جيرانه.. في نظر بقية باقية من أقربائه.. وفي نظر طلبته في الكلية حيث يدرّس مادة التاريخ..

الحقيقة أن «برنار» لم يكن كذلك منذ شهور خلت، بل كان قلقا مضطرب النفس شارد الفكر على الدوام. كان هناك ما يشغله بقوّة، لكنه، مثل قليل من خلق الله، كان من النوع القادر على إخفاء مشاعره خلف قناع من الوقار والهدوء يجعل مهمة استكشاف ما يدور بخلده من رابع المستحيلات.

«برنار» هو «برنار».. سواء فاز فريق «إف سي بروكسيل» الذي يشجعه أو انهزم.. سواء ترقى في عمله أو تجاوزه قطار الترقيات..سواء سمع بوفاة قريب أو ولادة آخر.

الحقيقة أن برنار مثال حيّ للقاتل المتسلسل الذي لا يشك فيه أحد، والذي يقول الجميع بعد أن يسمع حقيقة ما فعله يوما: « مستحيل أن يفعل برنار الطيّب ذلك»..

لكن برنار لم يكن قاتلا متسلسلا.. بل لم يكن مجرما يوما.. فقط كانت هناك مشكلة واحدة تؤرقه وتشغل باله على الدوام: لوحة الموناليزا..

كان فقط يتمنى أن يمتلكها، أن يجلس أمامها في غرفة التحف في فيلته منتظرا أن تبوح له بكل أسرارها.. وقتها، فقط، يكفّ عن القلق والتفكير ويعتبر نفسه امبراطور هذا العالم..

لقد ظلت هذه اللوحة تشغله منذ بدأ يهتم باللوحات الفنية الأثرية منذ عقود. امتلك الكثير من اللوحات.. بعضها ثمين.. وبعضُها أوهمه نصابون أنها كذلك..وبعضها اشتراها بثمن بخس فاتضح أنها ذات قيمة تاريخية لا بأس بها..

لكن برنار، في كل الأحوال، إنسان واقعي. وهو يعرف أنه من المستحيل أن تغادر الموناليزا مكانها حيث تقبع آمنة مطمئنة في متحف اللوفر بباريس..

لهذا اكتفى بقراءة كل كتاب ومشاهدة كل فيديو عن اللوحة.. الخلاصة أن دافنشي نفسه كان سينحني إجلالا أمام كمّ المعلومات التي يملكها برنار..

كل هذا كان قبل أن يكتشف برنار بمحض المصادفة، أثناء أحد بحوثه العديدة، أن هناك لوحة أخرى في العالم تحمل ذات الاسم لتشابهٍ ما لاحظه أحدهم بين اللوحتين.. لوحة" اسمها «الموناليزا المغربية». رسمها الفنان الاسكتلندي الشهير الراحل جيمس ماكباي..

لقد تغيرت حياة برنار منذ تلك اللحظة. طبعا لم يلاحظ أحد هذا. كل مشاعره كانت تغلي مثل حمم بركانية تحت أرضٍ تحسبها جامدة..

وبمبدأ «ما لا يدرك كلـّـــه لا يترك جلـّـــه» اتخذ برنار واحدا من أصعب وأخطر القرارات في حياته بعد أن قرأ كل التفاصيل الدقيقة عن «الموناليزا المغربية»..

وهاهو ذا برنار يجالس هدى، الفتاة الطنجاوية، ويعرض عليها فكرته بعد أن رسم كل الخطة في ذهنه. إن كان عاجزا عن فعل ذلك مع الموناليزا الشهيرة.. فلا أحد يتوقع أن هناك من سيقوم بكل هذه المغامرة من أجل سرقة الموناليزا المغربية..

لم يكن اختياره لهدى عبثيا طبعا.. لقد راجع سيَــر كل طلبته الحاليين والسابقين، فلم يجد سوى عدد قليل ينحدر من مدينة طنجة، حيث تقبع اللوحة في المتحف الأمريكي، يعدّون على رؤوس الأصابع..

وهدى كانت الأنسب. لقد اطلع على سيرتها وقام ببحث مطول عنها وعرف أي فتاة طموحة هي.. أي طاقة مدفونة بداخلها تنتظر الانفجار لكن قلة الإمكانيات تقمعها قمعا..

تذكر أيضا أنها كانت كثيرة الأسئلة. بعضها كان له علاقة بالدراسة فعلا وبعضها الآخر أسئلة فضولية تشفّ عن رغبتها في تحقيق قفزات سريعة ناجحة بدل الانتظار مع كل هذا الجيش الطلابي..

- إذن - سيد جانسنز - مهمتي ستكون فقط أن أعبر بالحقيبة، أو أمنحها لأحد أصدقاء حارس المتحف الأمريكي كي يعبر بها؟!

- فقط هذا..

- لا مخدّرات.. لا دسائس في الموضوع..؟!

- إطلاقا.. أعدك..

- مقابل 25 ألف أورو؟

- بالتمام والكمال..

- لا يبدو هذا منطقيا..

- هو منطقي، لأن تلك اللوحة لا تهم الجميع..هي فقط قيّمة بالنسبة لي أنا..

- وأنت تفضل أن أعبر بها أنا أو أستعمل الشخص الآخر..

- إن كنت تريدين الهبوط بنسبة المخاطرة إلى الصفر فعلا، فاستعملي الشخص الآخر، لكن بشرط واحد: إن وقع أي خطأ حينها في الخطة فستتحملين مسؤوليته.. ولست مستعدا إطلاقا لإخبارك بنتائج ذاك الخطأ في الحقيقة..

تنظر هدى إلى السقف وهي تفكر.. أو تفتعل التفكير. يعرف أنها ستوافق. عيناها تقولان أنها قد وافقت بمجرد ذكره المبلغ.. لكنها تتمنّع. تتمنع وهي الراغبة.

تطلب مهلة للتفكير فيوافق وهو يبتسم بكل ثقة. ستتصل به بعد ساعات أو على أكثر تقدير في الغد لتقول له أنها فكرت جيدا واقتنعت بالفكرة، وسيقول لها هو كلاما كثيرا عن ثقته بها وعن براعتها.. براعتها في ماذا؟ لا يعلم في الحقيقة. لكنه سيجاملها حتى تشعر بالملل.. عندها سيضع الهاتف ويكمل الترتيبات اللازمة لخطته.. وقد كان له ذلك.

استأجر عصابة متخصصة في هذا النوع من السرقات، مقابل 150 ألف أورو. هذه العملية أخذت منه وقتا كبيرا جدا لأنه كان خائفا ومتوجسا من أن يضع رأسه تحت مقصلة هذه العصابات التي تعشق الابتزاز.. لكنه نجح أخيرا في إيجاد شخص يعرفه من بعيد عرّفه على شخص آخر قال إنه يثق به تماما.

هذا الأخير، كان يرأس عصابة مكونة من ثلاثة أشخاص: بلجيكي وبولونيان.. قال له أنهم يتقنون عملهم إلى درجة أنه لحدّ الآن لم يتم سوى ضبط واحد منهم فقط وبسبب خطأ فردي منه وليس في خططهم الجماعية..

شرح لهم خطته هو.. سيسافرون بشكل متفرق.. اثنان إلى أكادير.. وآخر إلى مراكش، قبل أن يجتمعوا في طنجة لتنفيذ العملية..

بعد أن يتنكروا بشكل متقن.. سيخطفون اللوحة باستعمال غاز مخدر غير مرئي، بدون إراقة الدماء، ثم يحتفظون بها حتى يطلب منهم هو أن يعودوا بها..

أثناء ذلك ستكون هدى قد تدبرت مسألة سفر صديق الحارس بحقيبة كبيرة يسع قياسها قياس اللوحة.. والذي سيكون بالضرورة قد جاء إلى المتحف، أو إلى المستشفى، للاطمئنان على صديقه.. فالمجرم، أيّ مجرم، يحوم حول مكان جريمته طبعا..!!

نظرا للمواصفات التي قرأها عن اللوحة فهو يعرف فنانا قادرا على تزويرها بشكل متقن جدا.. عندما يحضر صديق الحارس إلى بلجيكا، سيقومون بوضع اللوحة في حقيبته ثم يخبرون الشرطة الدولية عن الأمر، وكأنه قد هربها فعلا..

ثم يأتي الجزء الأخير من الخطة.. وهو العبور باللوحة الحقيقية تحت أعين الجميع، باعتبار أن نسخا عديدة أصبحت تباع في الشوارع كتذكار.. والتي سيقوم بتكليف شخص بطبعها والترويج لها في طنجة..

ولمزيد من الاحتياط، سيقوم بتفكيك إطار اللوحة، المصنوع في إسبانيا في القرن السابع عشر، كي يتم العبور بالنسخة الورقية فقط من اللوحة إلى جوار نسخ أخرى وكأنه تم اقتناء الجميع كتذكار سياحي فقط.. ثم العبور بالإطار مفككا وهو ما لن يثير شك أحد طبعا، خصوصا أن اللوحة عادت فعلا إلى المتحف..

هدى ستنتهي مهمتها حال وصول صديق حارس المتحف إلى بلجيكا وتسليمهم مفتاح شقته إن استطاعت.. كي لا يضطروا إلى اقتحامها بشكل أو بآخر..

هكذا، يحصل هو على اللوحة الحقيقية.. يتم الإمساك بالمجرم.. تعود اللوحة إلى المتحف الأمريكي..

هكذا، لا ينقص الجميع سوى أن يكونوا عائلة واحدة سعيدة ويغنوا جميعا «وي آر ذ وورلد»..

يجلس برنار وهو يتذكر كل هذا، محاطا بلوحاته وتحفه، متأملا ذلك الانحراف الذي يعشقه في سواد عين «الموناليزا المغربية» اليمنى.. لقد نجحت خطته رغم أنها كلفته 300 ألف أورو تقريبا. هذا لا يهم. المهم أنه حقق جزءا كبيرا من حلمه.. يخاطب الموناليزا المغربية قائلا:

- أي أسرار تخبئين أنت أيتها الموناليزا المغربية .. ومتى تكشفين لي عن جزء منها؟!!

-28-

سارتر يقول إن الجحيم هو الآخرون..

الفيسبوك يقول إن النعيم هو الآخرون.. حتى لو كان هؤلاء الآخرون مجرد كائنات افتراضية مجهولة قد لا تهتم إطلاقا إن سمعت خبر مرضك أو رحيلك.

هي واحدة من أمتع اللحظات لدى «الزهرة»، عندما تنتهي من دراستها أو عملها، ثم تجالس تلك الكائنات الافتراضية في العالم الأزرق ليلا..

بروكسيل ليست المدينة الحلم.. والسماء فيها لا تمطر ذهبا ولا فضة. هذا ما اكتشفته الزهرة، ذات الثمانية عشر ربيعا، بعد أن كانت قد سمعت ورأت الكثير من أصدقاء وأقارب لا يكفّون عن التأفف كلما عادوا إلى أرض الوطن، وهم يعقدون المقارنة تلو المقارنة بين بلجيكا «الرائعة» والمغرب «الرديء».. لكنها وجدت أن الحقيقة تختلف، وأنه في كلٍّ خيرٌ وشرّ..

للغربة مساوئها وللوطن زلاته..

حصلت على شهادة البكالوريا بعد جهد جهيد، وجاءت هاهنا تجاور صديقتها وابنة خالتها في دراسة مادة التاريخ..

أربعة أيام من الدراسة وثلاثة أيام من العمل كي تستطيع أن تؤمن تكاليف الدراسة ولقمة العيش. خالتها تبذل مجهودا كبيرا كي تشعرها أنها لم تغادر منزل أمّها بعد، لكنها لا تحتمل أن تكون عبئا على أحد.. خصوصا بعد أن رأت كيف أن كل شيء محسوب بدقــّــة هنا. المصاريف كثيرة جدا وما يفيض عن الحاجة تأتي الدولة لتتسلمه على شكل ضرائب وهي تفرك يديها مستمتعة..

تدخل غرفتها وتندس في الفراش الدافئ واضعة جهازها المحمول فوق حجرها. تعلــّـــق أحيانا. تجامل.

تفتعل ضحكة. تقبل جميع طلبات الإضافة، وعند أول تجاوز تمسح وتحجب.

تنشر صورة لمدينة طنجة قديما. يعلق أحدهم تعليقا مستفزّا..

تتساءل: لماذا يكلّف نفسه من لا يحب شيئا التعليق على ما لا يحبّه؟! الأمر بالنسبة إليها أبسط من كل هذا التعب: أنت تكره شيئا ما.. إذن لا تهتمّ به.

تتجه سبابتها إلى زر «إمسح» كما في كلّ مرة.. تتراجع سبابتها على بعد ملمتر واحد. يزيد أو ينقص. تقرر أن تردّ عليه علــّـــــها تؤدبّـــه، ولو أنها تعرف من خلال تجربتها الزرقاء أن لا أحد يتعظ.. هنا الجميع على حقّ والجميع رائع والجميع «سيندم الآخرون لأنهم تركوه»..

يكتب أحدهم أو إحداهن «لا أندم لأنك تركتني بعد أن عثرت عليّ.. فهذا جعلني أكتشف أي «كنز» أنا!»

ياسلام.. كم عدد الكنوز في الفيسبوك يا ترى؟!! هي كثيرة كزبد البحر بالتأكيد..

حالة غريبة جدا من الماشوسية الممتزجة بالنرجسية يطفح بها الفيسبوك تثيرها وتستفزها لكنها تتسلى رغم كل شيء.. هي حياة أخرى تعيشها بعيدا عن ضغط الأعصاب في واقع اغتراب لا يرحم.

يرد عليها ذلك الشخص وقد خفت حدّة تعليقه. جميل. لقد أتى رد فعلها بنتيجة لأول مرة في تاريخ الفيسبوك على ما يبدو. تقول له كلاما محايدا.. لا تصدّه ولا تغريه بالمتابعة. يقول لها معلومة تسمعها لأول مرة عن طنجة.. يقولها لها على الخاصّ..

يبدو أنه عرف - من حيث لا يدري - من أين تؤكل كتفها.. هي المتيّمة بطنجة، العاشقة الولهانة بمدينةٍ تنتزع أرواح من يغادرونها، وتتركهم كأعجاز نخل خاوية.. قبل أن تردها إليهم حال عودتهم..

تجيبه، بتحفظ، طالبةً الاستزادة. يسرد عليها عددا من القصص لم تكن تعلمها عن طنجة. تنبهر تماما. كلامه مسلّ ولغته ممتازة جدّا. يرسل لها عددا من الصور الرائعة عن طنجة..

صورٌ لم تشاهدها قط من قبل..

صورة لفريق طنجة لـ«هوكي العجلات» في الخمسينات من القرن العشرين.. صورة لأول عامل بريد بالمدينة.. أفلام عالمية صوّرت بطنجة في الأربعينات.. لوحات لـ«دي لا كروا».. فيديو عن المدينة صوّر سنة 1932..

لم تشعر إطلاقا بالوقت. كأنها تكتشف طنجتها لأول مرة. الآن تفهم لماذا تحبّ هذه المدينة.. الآن تفهم لماذا قال الطاهر بنجلون « قد نعرف لماذا لا نحب طنجة، لكننا - أبدا - لا نعرف لماذا نحبّها»..

لا نعرف لماذا نحبّ طنجة - يا الطاهر - لأنها لم تبُح بكل أسرارها بعد ولن تفعل.. كم هو رائع هذا العشق الممتزج بالغموض.. عندما تشعر أن حبيبك سيبقى يقدم لك كل يوم جديدا حتى يواريك الثرى..

شعار طنجة هو «أجمل الأشياء هي التي لم تكتشفها بعد».. هكذا تمزج - هي - حبها لك وحبك لها بإثارة لا محدودة..

فقط تتمنى ألا يطلب هذا الغريب مقابلتها لأنها ملـــّـت تماما من هذا النوع الخبيث المتذاكي الذي يبدأ كلامه وفوق رأسه دائرة ملائكية ثم بعد أن يشعر أنه أحكم قبضته الافتراضية على الحوار، ينزع لباس التقوى ويبرزُ قرناه من جانبيّ جبينه، وهو يحاول نصب الفخ لضحيته.

هنا تأتي اللحظة التي تعترف لنفسها أنها تستمتع بها.. «إمسح» و«احجب» أيها الفيسبوك لا حرمنا الله منك.

لكن الغريبَ - وهذا غريب - لم يفعل. أنهى الحوار بأدب وودّعها. تكرّرت حواراتهما. اكتشفت أي ولهان بطنجة هو الآخر.

الحقيقة أنها لم تلتق في هذه الزّرقة شخصا موسوعيا مثله لحدّ الآن، على الأقل فيما يختص بطنجة. مرّ أسبوع كامل لتكتشف أن الفيسبوك أصبح هو الغريب، والغريب أصبح هو الفيسبوك.

الاسم الذي يستعمله في الفيسبوك هو «طنجاوي مغترب». نبّهها هذا إلى أنها لم تسأله عن اسمه لحدّ الآن، رغم أنه على ما يبدو يضع صورته الحقيقية في حسابه.. سألته وهي تخشى أن يكشف ذلك عن لهفة ما..

- لم تخبرني لحد الآن ما اسمك الحقيقي..!

- تعتبرين ذلك أمرا مهما..

- لا أدري.. لكنه يوحي بأن الشخص حقيقي وليس مجرد طيف..

- صدقت..

- إذن..؟

- إسمي هو... خالد...

-29-

المركز التجاري الصغير الموجود بحي «مولانبيك» شبه خال في تلك الساعة من الظهيرة. خالد يقتني بضع حاجيات صغيرة يضعها في سلة بلاستيكية ثم يتجه نحو المحصّلة كي يؤدي الثمن.. يرفع رأسه نحوها فتلتقي العينان...

- أنت الزهرة؟

- أنت خالد؟

- أهلا.. أهلا.. صدفة جميلة..

لا، ليست صدفة بالطبع. خالد يعلم أن الزهرة تشتغل هنا بشكل غير منتظم. تنوب من حين لآخر عن فتاة أخرى. وهو كان يتربص بها كي يفتعل هذا اللقاء.

كان سيحبط تماما عندما لم يجد في بريد هدى الإلكتروني أي معلومات ذات قيمة كبيرة. أو هذا ما اعتقد في بادئ الأمر. الرسائل المحدودة ذات الأهمية كانت قد تبادلتها مع شخص واحد اسمه د. برنار جنسنز، وكان واضحا جدا أنه العقل المدبر للعملية. آخر رسالة أرسلها لها كان يقول فيها:

- البضاعة وصلت، كل شيء انتهى بسلام.

تاريخ الرسالة يزامن وصول الموناليزا للمتحف الأمريكي وتعليقها في مكانها ثم الزجّ به في السجن في انتظار المحاكمة.

إذن، في الغالب هدى لم تتعامل مع العصابة بشكل مباشر إلا من خلال بعض الرسائل القصيرة الهاتفية التي كان قد اطلع عليها.

محظوظٌ هو لأن معاذ كان يعتبر مثل هذه التحديات تسلية ما بعدها تسلية. هكذا، قام بالبحث في الصفحات الصفراء عن إسم الدكتور برنار جنسنز.. ولم يكن هناك عدد كبير من «البرنارات» الذين يدرّسون التاريخ بإحدى جامعات بروكسيل.

في دقائق كان قد عثر على عنوان إقامته ببلدة واترلو.. ثم قررا معا أن يراقبا فيلته الصغيرة ليومٍ دون إثارة الانتباه.. علّهما يظفران بمعلومة ما.

بلدة واترلو أنيقة وهادئة جدا. بلدة كان يمكن أن تكون مهملة وغير شهيرة لولا أن نابليون - القائد الفرنسي الشهير - اختار، مضطرا، أن تكون آخر المعارك التي

يخوضها هناك ذات يوم من أيام يونيو سنة 1815، في مواجهة أربعة جيوش بقضها وقضيضها. هكذا أصبحت بلدة واترلو مزارا سياحيا يعرض كل ما يتعلق بالمعركة من مآثر وتحف ومقاطع سينمائية..

كان خالد يتجوّل في المزار السياحي وقلبه يتمزق حسرة. ماذا لو وجدت طنجة من يبذل من أجلها كل هذا المجهود.. كم سيكون عدد زوارها وعشاقها والوافدين إليها من كل أنحاء العالم؟!

فكر أنه بقليل من الإهمال كان يمكن ألا تكون أرض معركةٍ بهذه القيمة. في آخر المطاف هو مجرد مكان اندلعت فيه حرب. لكنهم هنا يعلمون كيف يصنعون شيئا من لا شيء. بينما في طنجة ينجحون في صنع لا شيء من كل شيء!!

تذكر ما تزخر به طنجة من آثار: قبر ابن بطوطة.. قصر برديكاريس.. منزل محمد شكري.. منزل بول بولز.. فيلا هاريس.. المآثر البرتغالية..

أحد هذه المآثر على الأقل قد يفوق من ناحية الجمال السياحي مزار واترلو كله..

- هل تسابقني في هذه الدرجات؟؟

- كم عددها ؟؟

- سمعت أنه 226..

- يا إلهي.. توكلنا على الله..

يصعدان درجات ذلك الهرم المعشوشب الأخضر مهرولان لاهثان.. في الأعلى أسد حجري يطل على منظر بانورامي للمكان ولمدينة بروكسيل. يضع خالد قطعة نقدية في تليسكوب يقولون أنه يمكنك من مشاهدة مدينة بروكسيل على مرمى قدم.

حبس المشهد أنفاس خالد.. ثمة سياح قليلون منشغلون بأخذ صور.. فيلا «برنار» يمكن رؤيتها بالعين المجردة من هنا كما لاحظ خالد.. خطرت له فكرة مسلية فقرر أن ينفذها.. أدار التلسكوب نحو الفيلا فبدت له أوضح وأقرب..

ما هذا الصوت الصادر منه..

- هه.. صوت الثواني يا حبيبي.. إن لم تضف أورو آخر سيحجب عنك الرؤية.. كل شيء محسوب هنا بدقة.. لو تركوك على راحتك لبتّ تعدّ نجوم الليل

البلجيكي هنا..

- أي والله صدقت..

يضيف خالد قطعة أخرى وهو يواصل مراقبة الفيلا.. فتاة تخرج منها وهي تعدل هندامها. بدت له ملامحها مغربية تماما..

- معاذ.. تعال أنظر.. أهذه فتاة مغربية أم أنني أخطأت التقدير؟!!

- لا ليست مغربية فقط.. هذه طنجاوية.. واسمها الزهرة..

- عدت لمزاحك الثقيل..

- أقسم لك باليمين المثلثة.. وهاك معلومة أخرى لا أريدك أن تصدقها أيضا: هي تقيم مع خالتها على بعد شارعين فقط من مكان إقامتنا.. وقد سمعت فعلا أنها تشتغل يومي الأربعاء والسبت كمنظفة بإحدى الفيلات بواترلو، لكنني - أبدا - لم أعتقد أن الصدفة ستكون خيرا من ألف ميعاد إلى هذه الدرجة!!

- ومن أين لك أنت كل هذه المعلومات؟!

- بالله عليك.. نحن المغاربة نشكل هنا مجتمعا صغيرا متكاملا رغم أننا قد نبدو مشتـّـــــتين أحيانا.. في الأخير الجميع يعلم كل شيء عن الجميع.. لا أسرار هنا إن كنت تفهم ما أقصد..

الفتاة تركب باصا صغيرا وخالد يراقبها مذهولا مصدوما من هول المفاجأة. أتراها مفاجأة سارّة ستفيده في ما جاء من أجله أم أنها حلوى أخرى مسمومة ملفوفة في غلاف برّاق؟!

يتذكر خالد هدى في تلك اللحظة. يتذكر الخطة الخبيثة التي استدرجته بها. أمن حقه أن يستعمل ذات الخطة للوصول إلى هذه الفتاة التي اسمها الزهرة والتي ستكون وسيلته الفضلى للوصول إلى هدفه؟

لا بأس. سيفعل ذلك. نيته طيبة على عكس هدى. لكن، من قال إن الطريق إلى الجحيم ليس مفروشا بالنوايا الطيبة؟! لكنه على أية حال متأكد أنه لا يريد أن يؤذي أحدا.. سيحرص على ألا يفعل.

معاذ يتدبر له أمر الحصول على فيسبوك الزهرة. يقضي أوقاتا طويلة أمام العالم الأزرق من جديد. يتربص بالزهرة كل متربِّـــص.. يناور. يلـــف. يدور. يعلق. يسخر. يستفز... وأخيرا، يحقق هدفه بالتواصل اليومي مع الزهرة..

يطلب المقابلة؟ ستكون مغامرة غير محسوبة العواقب لأن زر «إمسح» لازال موجودا في الفيسبوك على حدّ علمه.. والفتيات يستعملنه بكثرة للأسف.

هكذا، حصل على مزيد من المعلومات وعرف أن الزهرة تشتغل بذاك المركز التجاري، فافتعل اللقاء. ولمزيد من الإمعان في إتقان خطته، لم يطل وقوفه مع الزهرة.. فقط تبادل معها التحية وتمنى لها التوفيق وغادر. نصب الشباك بهدوء أفضل من استعمال الصنارة بعنف على أية حال.

-30-

يذهب خالد صباحا لتنظيف ذات المطبخ الذي يعمل فيه صديقه معاذ. «بيتر» صاحب المطعم سعيد لأن خالد لا يكلفه الشيء الكثير، فهو يشتغل في «النوار» كما يسمونه.. أي السوق السوداء. حيث لا ضرائب ولا تغطية صحية للعامل.

كارلا البلغارية ثرثارة جدا ولا تكف عن الحديث عن زوجها الوغد الذي هجرها يوما دون أن يخبرها بوجهته. الرجال أنذال. تقول هذا وهي تدخن سيجارتها بأصابع مرتجفة.

خالد يؤمّن على كل ما تقول.. من ذا يستطيع معارضة كارلا؟!

من يفعل ذلك عليه أن يضع كل عدة العمل جانبا ويستمع لفحيح كارلا إذ تشنف مسامعه بحكايتها من أول يوم تعرفت فيه على زوجها.

عندما ينهي خالد عمله يعود إلى البيت سيرا على الأقدام. رحلة تستغرق نصف ساعة يستمتع فيها خالد بالتأمل والتفكير في كل ما مضى والتخطيط لما هو آت. صدق نيتشه عندما قال إن الأفكار العظيمة تولد أثناء المشي.

من حين لآخر يطل طيف هدى عليه من سيارة أو نافذة أو محل تجاري.. يستغرب، أمام كل هذه الصدف، أنه لازال لم يقابل هدى في مكان ما لحدّ الآن. صحيح أنها تقيم في مدينة أنتويرب لكنه تعلم، ثم تعوّد، أن العالم صغير كراحة يد.

يأخذ سيارة معاذ ويمرّ على الزّهرة في مكان غير بعيد عن مكان إقامتها، لكنه منزوٍ. لازال الفضوليون يملأون العالم، ولو رأوهما معا لوُلدت ألف حكاية وحكاية عن علاقتهما.

خطته الصّبورة المتأنية نجحت في استدراج الزهرة لتواصل مباشر بعد أن استنفذا كل الكلام الأزرق. الملل هو عدو العلاقات الافتراضية الأول.. وعند مرور فترة لا بأس بها يصبح الكلام مكررا ومملا وتـُـفتقد الإثارة تدريجيا، وهنا يظهر الخياران: إما اللقاء المباشر، أو زرّ «إمسح».

طنجة أسدت له معروفا كبيرا لأنها كانت السبب الكبير الذي جعل الزهرة توافق على لقائه كي تنهل أكثر من معلوماته حولها.. هذا ما صرحت به على الأقل.

كان التردد واضحا على ملامحها عندما طلب منها اللقاء في المركز التجاري حيث تعمل، لكن رغبة خفية في الاستجابة كانت أيضا تطلّ من ملامحها وعينيْها، مما شجعه على "ضرب الحديد وهو ساخن". فقال لها بسرعة:

- غدا الأحد عطلة، سأمر عليك في الساعة الحادية عشرة صباحا..

يجلسان معا في مقهى «لوفونطينا» وهي تسأله أكثر وأكثر عن تاريخ طنجة.. ثمة موسيقى هادئة تنبعث من مكان ما.. كان واضحا أنها تلتهم كلماته وأن اهتمامها بطنجة حقيقي وليس مفتعلا.

بالنسبة له كان كل شيء مفتعلا في بادئ الأمر، ثم وجد نفسه تدريجيا يستمتع فعلا بالحديث عن طنجة مع الزهرة، خصوصا أنها، فيسبوكيا وواقعيا، كانت عفوية جدا ومرحة.

ما أثاره جدا في ملامحها أن هناك انحرافا طفيفا في سواد عينها اليسرى.. لكأنهما عينيّ «زهرليزا» تم وضعهما أمام مرآة..

- هذا الانحراف الطفيف في عينيك يصيبني بالجنون..

- الجنون دفعة واحدة؟ يا إلهي.. لا تبالغ.. ربما تقصد الارتباك.. الحيرة.. يقول لي السيد برنار أن مايميّزهما هو أنك لا تستطيع أن تركز النظر عليهما مدة طويلة..

- صدق وهو من الكاذبين..

- ليس من الكاذبين أيّها الغيور.. هو رجل محترم فعلا..

- كيف علمت ذلك؟

- الحقيقة أنني شككت أيضا في بادئ الأمر عندما عرض علي هو أن أعمل لديه يومي السبت والأربعاء كمنظفة، خصوصا أنني أجد في كل مرّة أن الشقة نظيفة فعلا ولا يستلزم الأمر سوى بضع لمسات لا تكاد تذكر. لكن الرجل - مثلي ومثلك - قال أنه يتفاءل بمدينة طنجة وأهلها منذ حقق إحدى الصفقات بالمدينة.. لذا آثر أن يساعدني بهذه الطريقة. لا أنكر أنني خشيت أيضا أن يكون عجوزا متصابيا يريد أن يلهو، لكنه - باستثناء الحديث عن عينيّ - لم يحاول إطلاقا أن يتحرش بي إن كان هذا ما تلمح إليه..

- لم يحدثك عن تفاصيل صفقته تلك؟

- لم يفعل، ولم أكن بالوقحة لأسأله..

- لم يحدثك عن الموناليزا المغربية؟

- الموناليزا المغربية؟ وهل هناك موناليزا مغربية؟

- نعم هناك، وأحب أن أطلق عليها أيضا اسم «زهرليزا» لأن اسم صاحبتها بالمناسبة هو «الزهرة» مثلك، وهي أيضا ابنة بارّة للمدينة..

- باللّه عليك.. هل أنت جاد؟ وأين توجد هذه اللوحة؟

- في المتحف الأمريكي بطنجة..

- ولم تحدثني عنها من قبل أيها الخبيث..

- لكل حادثة حديث، ولكل أجل كتاب..

الفرحة والانبهار يطلان من عيني الزهرة فيتأكد خالد أن الدكتور برنار لم يحدثها فعلا عن اللوحة. إذن هو قد أمسكها على هونٍ أو دسها في غرفة لا يدخلها أحد.

- آه.. الآن أتذكر.. قال لي يوما أنه يريدني أن يرسمني لأنني أذكره بلوحة فنية.. لكنه لم يذكر هذا الاسم طبعا..

- هاهما قرنيُ الشيطان يبدآن في البروز..

- لا أصدق كمّ الشك وعدم الثقة لديك يا خالد..

- فقط لو علمت ما أعلم..

- أكره نغمة الغمّ هذه..

- أعتذر فعلا، لكنني رأيت من الحياة في شهور ما يراه البعض في سنوات.. وربما لا يراه أبدا..

- أحببت فيك صلابتك البادية على ملامحك، فلا تردّني خائبة.

- لن أفعل. أعدك.. والآن دعيني أخوض التحدي..

- أي تحدّي؟

- تحدي النظر إلى عينيك لدقيقة كاملة..

- لا..لا.. لا داعي لهذا الطلب المحرج يا خالد..

- أنا لا أطلب.. أنا آمر..

- أوامرك على الرأس والعين سيدي.. هاهما عيناي ولنر أينا أشد تحملا وأشد صبرا..

ذلك المزيج من الأسود والبني في عيني الزهرة يحرك مشاعرا كان خالد قد دفنها في أعمق أعماق قلبه. البذرة تتحرك من جديد إذ تـُسقى بعيون

الزهرة.. وهو يقاوم. مشاعره ألقت به في مصائب لا تحصى وهو لا يريد أن يعيد التجربة..

تخفض الزهرة عينيها بعد أن تكتشف أن خالد قادر على التحديق فيهما إلى ما لا نهاية.. يبتسم هو إذ يفهم حرجها..

- أفهم من هذا أنني كسبت الرهان؟

- قد فعلت..

- لم أجد صعوبة لأنني تدربت على هذا..

- تدربت على ماذا ؟ على التحديق في عيون النساء؟!

- طبعا لا.. بل على التحديق في عيون «زهرة» أخرى أخبرتك عنها قبل قليل..

- لا تقل لي إن عينيها تشبه عيناي أيضا..

- مع اختلاف بسيط في العين التي طالها الانحراف..

- صدقني أنت تثير فضولي بشدة. أول ما سأفعله بمجرد ما أصل إلى البيت هو البحث عن كل ما يتعلق بهذه الزهرة التي أخذت مني - أو أخذتُ منها - كل شيء حتى الاسم..

توقظ الجملة الأخيرة خالد من خدر لذيذ كان قد استمرأه.. أنت هنا من أجل مهمة محددة وليس من أجل لعب دور العاشق. استفق. يقول خالد لنفسه. الزهرة ستبحث عن زهرليزا وستجد كل ما يتعلق بها على محرك البحث بما في ذلك حكايته هو وحكاية خطف اللوحة..

هذا يعني ببساطة أنه من الأفضل أن يستبق كل ذلك. ويحكي لها الحكاية كلـــــّـــها. أن تسمعها منه. ويرى ردة فعلها بنفسه أفضل بكثير من أن تكتشف الأمر بنفسها مع كل الهواجس والوساوس التي قد تنتابها حول الموضوع.. عندها سيخسر كل ما جاء من أجله.. وقد يخسر الزهرة أيضا. وهذا أيضا شيءٌ بدأ يعترف لنفسه أنه لا يريده. إذن لقد حسمت المسألة من تلقاء ذاتها.. فليـَــــرْوِ لها كل الحكاية.. وليأتِ الطوفان بعدها.

-31-

طق طق... طق طق...

صوتُ الملعقة إذ تصطدم بجانبي كأس الشاي الأسود الذي كفّت الزهرة عن ارتشافه. تحرك الزهرة الملعقة ببطء وتفكّر برأس منكّس. خالد يبتلع ريقه توجّسا وتعبا بعد أن أنهى الحكاية كلها بجلّ تفاصيلها.. وأجاب عن كل أسئلة الزهرة التي قاطعته مئة مرّة أو تزيد..

- وماذا تقترح أن نفعل الآن؟

راقه بشدة أنها استعملت صيغة الجمع. هي إذن ترى نفسها، منذ أنهى حكايته، طرفا في الموضوع. أيضا، هي لم تسأله إن كان سبب مسارعته إلى معرفتها ولقائها هو فقط زهرليزا، وبالتالي اعتبارهُ إيّاها مجرد قنطرة لتحقيق هدف.. إما أنها تغافلت أو احتفظت بهذا السؤال لمكان وزمان آخرين..

في الواقع، كان خالد قد احتاط لأسوء الاحتمالات وأعد خطة ثانية في حالة فشلت الأولى، أو قررت الزهرة أن تكون من طينة هدى وتقلب عليه الطاولة.

ما لديه من الأدلة لا يستهان به: الرسائل الإلكترونية بين برنار وهدى، الرسائل الهاتفية بين هدى وفرد العصابة، اللوحة المزيفة الموجودة في المتحف الأمريكي والتي بمجرد ما سيثير الشك حولها سيتم التأكد من حقيقتها...

كل هذا كان سيرسله معاذ، في حال تعرض هو لأي أذى، من بريد مجهول لإدارة المتحف الأمريكي بطنجة وللشرطة البلجيكية ثم ينتظر النتائج التي تبدو له واضحة من الآن..

ما يريده فعلا من الزهرة هو أن يتأكد أين يضع الدكتور برنار اللوحة كي تكون رسالته أكثر دقة. يريد أن يمحو الشك تماما من ذهن الشرطة البلجيكية التي ستأتي لتفتيش مكان محدّد مسبقا، وليس تفتيش الفيلا كلها والتي قد لا يجدون فيها شيئا إن كان يضع اللوحة في مكان سري جدا..

- أقترح أن تحاولي معرفة مكان زهرليزا باستعمال كل الحيطة والحذر طبعا.. وبعد أن تتأكدي، ستتبقى أمامي حركة واحدة أقوم بها كي يبدأ الاحتفال البهيج..

- الحقيقة أن الدكتور برنار ينزل إلى قبو فيلته كثيرا، وهو مكان محظور علينا كخدم.. لم يقل لنا هذا يوما.. لكننا فهمناه واستنتجناه لأنه لا يسلم مفتاحه لأحد.. لو كان يريد تنظيف القبو مثلا لما تردد في تسليمنا المفاتيح، أو ترك الباب مشرعا كما يفعل مع باقي الغرف..

- تعتقدين أنها قد تكون هناك؟

- أعتقد نعم.. لكنني لا أجزم..

- مهمتك إذن ستكون هي التأكد.. ومرة أخرى أؤكد على أخذ الحذر والتعامل بعفوية دون إثارة ذرة شك.. إن كنت ترين أن المهمة ثقيلة عليك أو تشعرين بذرة خوف فلا تترددي في الرفض هنا والآن..

- استعادة لوحة فنية طنجاوية هو عزّ الطلب فلا أعتقدُني سأحرم نفسي منه..

- حماسٌ جميل.. لكن الحقائق تكون أحيانا قاسية جدا وصادمة وكل ذاك التصور الجميل عن الأشياء ينزوي كهرّ لطيف في ركن..

- يقول الغربيون أنه «على الرجل أن يقوم بما على الرجل أن يقوم به»..

- الرّجل.. نعم.. لم يتحدثوا عن المرأة..

- انتبه..الرجل يقصدون به هنا «الشخص»، وليس المعنى الفيزيقي للكلمة..

يعيد خالد الزهرة إلى البيت. يقود السيارة بهدوء وثقة كما طلب منه ذلك معاذ. كانت نصيحته واضحة: إحرص على هندامك.. تصرّف بثقة.. ولن يستوقفك شرطي واحد حتى تطلع الشمس من مغربها..

والنصيحة تبدو فعالة جدا لحد الآن، لأنه فعلا يمر أمام العشرات من رجال الشرطة يوميا، مشاةً وراكبين، دون أن يعيره أحدهم أي اهتمام مادام لم يخرق قانونا أو يثرْ جلبة..

معاذ يحمل روحا مغامرة جدا، ولا يبدو عليه أي خوف من وجود خالد معه أو استعماله لسيارته. هكذا عهده منذ الطفولة. هناك أناس تولد الشجاعة معهم ولا يحتاجون لاكتسابها، ومعاذ واحد منهم.

الزهرة تخبره عبر الفيسبوك أنها لازالت لم تجد الفرصة بعد لدخول القبو فيطلب منها ألا تتعجل بينما بركان من القلق يضطرم بداخله.

أحيانا ينسى، أو يتناسى، كل ما يتعلق بزهرليزا وما جاء من أجله، ويندمج تماما في حياة الاغتراب.. العمل صباحا في مطعم بيتر، والعمل مساءً في ترتيب بضاعة أحد المحلات التجارية الصغيرة التي تشتغل ليلا، والتي - أيضا - تدبرها له معاذ..

- أفهم الآن لماذا فررت من إسبانيا يا معاذ.. لازالت بلجيكا تحتفظ بفرصٍ للمهاجرين على ما يبدو..

- هي فعلا من الدول التي لم تتأثر كثيرا بهذه الأزمة الخانقة.. لا ندري ماذا تخبئ الأيام القادمة بعد أن يفر الجميع من إسبانيا.. لكن لحد الآن، لازالت فرص العمل موجودة..

يخرج خالد ليتمشى في ليل بروكسيل. كان دائما يقول لنفسه أن أول رواية سيكتبها ستكون في أجواء أوروبا الباردة الملهمة..

عندما يعود إلى الشقة يجد معاذ يغط في نومه. يجلس أمام شاشة الكمبيوتر لكن أصابعه تعانده بشدة.. يشعر بالرغبة.. بالإلهام.. لكن المخاض عسير جدا.. والكتابة تتمنّــــع كفتاة حسناء..

يرقد في مضجعه ويفكر في كل ما مضى.. يتذكر صديقيه منير والمهدي اللذين صدما عندما علما بهجرته.. طلب منهما الاحتفاظ بالأمر سرا وإخبار عزيزة رحمة أنه في أحد أسفاره الأدبية لا غير..

حنين جارف إلى شقته الصغيرة وإلى عزيزة رحمة التي تقضي بالتأكيد أياما سوداء مع قطته العنيدة التي تسرق منها الكفتة..

اشتاق جدا إلى حياته الهادئة بطنجة. جميعنا نصرخ برغبتنا في الخروج من الروتين، وعندما يحدث ذلك نشتاق إلى العودة إليه وندرك كم كانت حياتنا رائعة قبل أن يحدث فيها تغيير ما.

أتراه فقط ذلك الحنين الطبيعي إلى الماضي.. حتى لو كان ماضيا قريبا..؟!

لشهور قليلة مضت، كانت أكبر مشكلاته هي المرور من الدرب دون أن يلحظه البقال المدين له.. وكيفية تدبّر مبلغ لأداء فاتورة الإنترنت.. الآن هاهو يحمل على كتفيه حملا ثقيلا ويحاول أن يرد بعض الجميل لطنجة، دون أن يُشعر بذلك أحدا أو ينتظر جزاءً ولا شكورا.. مهمة كاميكازية فعلا، دفعه لها مزيج من حب طنجة والرغبة في الانتقام، قبل أن ينسحب الشعور الثاني ويفسح المجال

لطنجة وحبّها، فقط لا غير.. وأثناء ذلك سيجازى كل المذنبين بما أجرموا.. وبينهم هدى طبعا..

الزهرة تترك له رسالة على الفيسبوك مفادها أن العملية قد تمت بنجاح وأن زهرليزا موجودة فعلا في القبو الذي اكتشفت أنه أقرب إلى المتحف منه إلى قبوٍ في فيلا..

اليوم يوم سبت، وغدا الأحد.. سيكون أمام الزهرة كل الوقت لتحكيَ له القصة كلها في مقهى لوفونطينا..

-32-

قطرات من شتاء شهر مارس تغسل شوارع بروكسيل بحنان لكن بإصرار. خالد يوقف سيارته غير بعيد عن مقهى لوفونطينا ويترجل. حال دخوله المقهى، طلب من نادل المقهى أن يضع التلفاز على قناة طيلي بروكسيل المحلية فأومأ هذا الأخير برأسه بأدب واستجاب.

بمجرد ما أكدت له الزهرة أمس أنّ زهرليزا موجودة فعلا في قبو الفيلا نفذ خطته بحذافيرها فأرسل رسالتين من بريد مجهول من مقهى إنترنت إلى كل من الشرطة البلجيكية وإدارة المتحف الأمريكي.. وإمعانا في الحرص، اتصل أيضا من أحد الهواتف العمومية بالجهتين معا مانحا إياهما ذات المعلومات بسرعة ودون أن يمنحهما فرصة سؤاله.

الإضافة الأخيرة التي نفذها والتي خطرت بباله مؤخرا فقط، هي إبلاغ عدد لا بأس به من وسائل الإعلام المحلية وعلى رأسها قناة طيلي بروكسيل.. الصحافة تصنع من اللاشيء خبرا كما تعلـــّــم، فكيف لو كان هناك خبر فعلا، ومن النوع المتفجّر؟!

لو كان الأمن البلجيكي قد قام بواجبه فغالبا سيكونون قد حجزوا اللوحة، في انتظار أن يؤكد لهم مسؤولو المتحف الأمريكي بطنجة أصالتها أو زورها وهو ما سيكون قد تم فعلا لأنه حدد بالضبط في رسالته أين يتجلى تزوير اللوحة وأشار إلى ذلك الانحراف في العين والذي يزيد مليمترا واحدا عن اللوحة الأصلية.

تدخل الزهرة وهي تحتمي من المطر بمظلة وردية صغيرة. يرحب بها بابتسامة خرجت من أعماقه، قبل أن تفلت منه ضحكة عفوية..

- ما يضحكك؟!

- شكل جسمك النحيل مع المظلة الصغيرة.. بدوتِ لي كواحدة من بطلات مسلسلات الكرتون البريئات..

- لعلي ذكرتك بـ «بائعة الكبريت» ؟

- لا.. لا.. إلا هذه.. فيلم معدّ خصيصا للأطفال تتعذب صاحبته طوال الوقت ثم تموت؟ واللّٰه لا أدري أيّ سادي قام بكتابته.. كرهته في طفولتي ولازلت..

- الحقيقة أنني لست من اللواتي يتغطّيْن من مطر خفيف كهذا، لكنني خشيت أن تفعلها سماء بروكسيل وتفاجأني بسيل منهمر..

- صدقت.. مع شهر مارس الموصوف بالجنون يمكن أن نتوقع أي شيء.. أيها النادل.. شاي أسود للآنسة لو سمحت...

- لن تسألني كيف عرفت بوجود اللوحة؟

- أحترّق شوقا لأفعل، لكنني أفتعل اللامبالاة كما يليق بشخص في وضعي..

- تصيبني صراحتك الساخرة في مقتل.. المهم يا سيدي أن الأمر كان أسهل بكثير مما تصوّرت. فكما قلت لك أن الدكتور برنار كان يدخل القبو أثناء وجودي لكنني لم أكن ألقي بالا للأمر إطلاقا.. هذه المرّة كنت أتربص باللحظة المناسبة.. وبمجرد ما بدأ تحركه العادي نحو باب القبو، اتجهت أنا نحو زاوية في الصالة تسمح لي بمشاهدة مساحة كبيرة من القبو.. عملية فتح الباب البطيئة بالمفتاح وإخراجه منه ثم الدخول وإغلاق الباب تأخذ من الدكتور برنار وقتا لا بأس به سمح لي بمشاهدة جزء كبير من القبو الذي اكتشفت أنه شبيه بمتحف.. ذلك الجزء الذي شاهدته كانت زهرليزا تقبع فيه غير سعيدة و لا راضية بين بضع لوحات أخرى..

- بهذه البساطة؟

- أيْ واللّه بهذه البساطة.. طبعا محاولاتي السابقة للتلصص فشلت لأن الباب مُصمتٌ تماما وثغرة مفتاحه لا تسمح لك برؤية جدار مقابل.. طبعا لم أحاول حتى أن أطل منها تجنبا لإثارة الشبهات.. ما حدث كان أفضل هدية قدمها لنا الدكتور برنار قبل أن يؤدي ثمن خطئه الفادح في حق طنجة..

- تشعرين بالذنب؟!

- لا أنكر هذا.. في آخر المطاف كان تعامل الدكتور برنار معي إنسانيا بحتا ولم يصدر منه ما يُقلق.. لكن اللوحة لابد أن تعود لمكانها والجاني لابد أن يأخذ جزاءه.. برنار رجل طيب، لكن هذا لا يعني أن يسرق طنجتنا ثمّ نصمت.. لاحظ أنني أيضا سأفقد عملا كان يدرّ عليّ بضع بضع أورووات.. لكن، كلـــــه يهون في سبيل طنجة..

- حسنا.. هاهي نشرة أخبار الواحدة.. فلنر إن كان هناك جديد..

تتعلق عيونهما بالشاشة المسطحة الكبيرة ومذيع الأخبار يتلو عناوين الأخبار دون أن يشير إلى ضبط اللوحة وكأنه يتسلى بتعذيبهما.. ينظران إلى بعضهما البعض بإحباط.

يبدأ المذيع في سرد تفاصيل العناوين لكنه يستهلها بخبر عاجل... «خبر عن ضبط لوحة كانت قد سرقت من مدينة طنجة تعرف باسم «الموناليزا المغربية» ببلدة واترلو في فيلا دكتور بجامعة.......»

هذه المرة تلتقي النظرات المنتصرة، المنتشية.. يمسك خالد يد الزهرة ويقبّـــــلها.. تسحبها الزهرة في سرعة وتتورّد وجنتاها.. لا يبدو على خالد أنه انتبه إطلاقا لما فعل وهو يتابع التفاصيل ذاهلا..

لقد نجح أخيرا.. لقد فعلها.. لم يذهب مجهوده هباءً.. لأول مرّة يشعر أنه قدّم شيئا لطنجة.. شريط الذكريات يمرّ بذهنه منذ أول تردد.. منذ عرف هدى، وحتى تعرف على الزهرة.. وشتان بين الاثنتين..

- لكي لا أنسى في غمرة الفرحة.. أأحضرتَ لي نسخة مطبوعة من خبر ذلك الطفل الإفريقي الذي أنقذته في شاطئ لابولونيا كما طلبت منك؟

- طبعا فعلت.. لا أفهم كيف لا يعمل الرابط الإلكتروني الذي أرسلته لك على الفيسبوك بينما يعمل على جهازي..

- ربما فقط بقي محفوظا في ذاكرة الجهاز.. لأن رسالة تقنية تقول لي أن الخبر تم حذفه من أرشيف الموقع..

- الخبر المطبوع في جيبي وسأمنحك إياه لاحقا.. أما الآن فأعتقد أنه من حقنا أن نحتفل بجولة في بروكسيل لن نعود منها حتى المساء..

- لا..لا.. لا أستطيع.. أمامي عمل كثير..

- وأنا أمامي عمل أكثر.. لكننا - أنا وأنت - سنضحي اليوم بكل شيء من أجل طنجتنا التي جمعتنا.. أو تبخلين عليها بهذا؟

- ما أخبث مبرراتك..

«العنصر الصافي ولما ديالو يجري... مانعبيكش آ لعيلة واخا نبقا عزري».. يتمايل رأس خالد وهو يردّد مع الأغنية الجبلية الطنجاوية كلماتها.. الزهرة تحاول أن تحافظ على رزانتها لكن صوت آلة «الغيّاطة» لا يترك لها مجالا فتبدأ في ترديد الأغنية مع خالد..

خالد يصفق ويحوّر كلمات الأغنية..

- ما نعبيكش آ «الزهرة» واخا نبقا عزري ..(لن أتزوج بك يا الزهرة حتى لو بقيت عازبا)..

لا تتمالك الزهرة نفسها فتنفجر ضاحكة غير قادرة على التماسك..

- خالد.. انتبه.. هذه السيارة..

يضغط خالد الكابح بقوة إذ تقطع تلك السيارة السوداء الطريق عليهما بشكل مفاجئ.. لا يفهم ماذا يحدث بالضبط.. ينزل منها شخصان مقنعان ويطلبان من خالد والزهرة النزول بسرعة.. الطريق الضيقة تلك خالية تماما من أي شخص أو سيارة..

ينزل خالد والزهرة وهما ذاهلان تماما.. مصدومان.. عاجزان عن الفهم..

يخرج أحدهما مسدسا بينما يبقى الآخر على مسافة بعيدة قليلا يراقب الطريق..

- أي كلمة تصدر منكما تعني رصاصة مني فورا.. هيا انزلا على ركبتيكما معا..

يستجيبان له وخالد يحاول أن يفهم منه بحركة من يده، لكن فوهة المسدس تصدّه مرة أخرى.. ينظر إلى الزهرة فيجدها تبكي.. يتمزق قلبه قطعا.. فقط لو يفهم ماذا يجري؟

يسمعان معا صوت زر أمان المسدس إذ يرجعه المقنع نحو الخلف..

يصوب المقنع المسدس نحو رأس خالد أولا ويبدأ في الضغط على الزناد..

-33-

- توقف..

يصرخ الشخص الذي يراقب الطريق في الآخر ثم يقترب.

- لا تنس يا أخي أنه يريدها أن تبدو كسرقة.. ليس سرقة السيارة فقط.. بل حتى ما يملك هذان.. و لا أريد أن آخذ ممتلكات ملوثة بالدم..

- حسنا.. أسرع وفتشهما..

يدخل الرجل يده في جيوب خالد فلا يخرج سوى ببضع قطع نقدية. يرميها في إهمال وغضب.. يدخل يده في سترته فيجد ورقة، فيفردها في حنق متزايد.. يهمّ برميها قبل أن يتراجع في آخر لحظة.. ينظر إليها. يناولها لصاحب المسدس متسائلا:

- أليس هذا هو خبر الحادثة؟

- آه..نعم .. إنه هو .. غريب جدا... أنت.. ماذا تفعل بهذه القصاصة الخبرية في جيبك.. أجب.

يصمت خالد دون أن يجيب. ماذا ستفيده الإجابة؟ هو ميّت في كل الأحوال.. فليحتفظ لنفسه بواحدة من آخر حقوقه.. الصمت.

يشعر بارتجافة جسد الزهرة وكأنها تحرك الأرض تحت قدميه فيزيده هذا ألما على ألم وخوفا على خوف..

- هيا أجب بسرعة..

- وماذا تفيدك إجابتي؟!

- قلت لك أجب بسرعة..

- لقد كنت أنا من أنقذ ذلك الوليد..

- أنت أنقذت هذا الرضيع؟

- نعم..

- أجبني بصدق وإلا فجرت رأسك.. أنت أنقذت هذا الرضيع؟!!

- قلت لك: أنا.. أنقذت... ذلك .. الرضيع.. لا أحتاج كذبا في آخر لحظات حياتي على ما يبدو...

- قل لي بدون تردد كيف فعلت ذلك، فأنا أعرف القصة كلها..

يروي له خالد بأنفاس متقطعة القصة كلها. يرخي الرجل قبضته المتشنجة حول المسدس ويترك يده تتدلى جانبه كأنها أصيبت بشلل مفاجئ. الآخر ينظر إليه منتظرا أيّة أوامر..

يسقط الرجل المسدس ويجلس على الأرض منهارا، باكيا.

خالد لا يفهم ما يحدث. الزهرة تستدير في بطء لتستكشف من بين دموعها ماذا يحدث بالضبط. الرجل يدفن وجهه بين راحتيه ويبكي بصوت مسموع. الآخر ذاهل ولا يدري ماذا يفعل بالضبط..

- هذا الرضيع الذي أنقذته هو ابني.. وتلك زوجتي.. لقد سبقتها إلى هنا على أن تلحق بي.. انتظرت كثيرا ولم تصل. لكن وصلني خبر وفاتها وخبر هذه القصة من عدد من أقربائنا وأصدقائنا هنا.. أنا أيضا احتفظت بنسخة من هذا الخبر متحيّـــــنا اللحظة التي أذهب فيها لهذا المستشفى وأعود بابني الوحيد.. لكن أرجوك قل لي.. هل فعلا ماتت زوجتي قبل أن تلده؟

- نعم.. ذلك ما حدث بالضبط.. لقد حاولت جاهدا إنعاشها لكنني لم أستطع إلى ذلك سبيلا..

- لكنك أنقذت فلذة كبدي..

- أنقذه الذي خلقه ويريد له مزيدا من العمر..

ينهض الرجل ببطء.. ينزع عنه قناعه لتبدو بشرته السمراء.. يقترب من خالد ويضمه وهو يجهش ببكاء حارّ. خالد يحاول أن يتماسك..لكنه، إذ يستحضر ما حدث في شاطئ لابولونيا، يترك العنان لدموعه أيضا..

الزهرة تعتدل في وقفتها وتتكأ على السيارة وهي تكفكف دموعها وتنظر للرجلين حائرة. هل حقا يحدث هذا أم أنها تحلم؟!

يقول الرجل وهو لازال يعانق كتف خالد..

- أنا سولومون.. هذا أخي ماكسيمليان..

- وكنتما تنويان التخلص منا؟

- بصدق.. ذاك ما كنا سنفعله..

- كيف ولماذا؟

- الحقيقة أننا لا نسأل عندما نكلف بمهمة كهذه، لكننا في هذه المهمة بالضبط تعاملنا مع الزبون مباشرة.. وهو الدكتور برنار الذي شاهدنا قبل قليل خبر القبض عليه..

- هو أمركما بقتلنا؟

- أمرنا بالتخلص منكما..

- لا أجد فرقا بين المصطلحين..

- في كل الأحوال.. يبدو أنه لم يجد الوقت للفرار بغنيمته لأنكم كنتم أسرع منه على ما يبدو وبلغتم عنه.. نحن لم نكن نعلم كل هذا طبعا إلا عندما شاهدنا نشرة الأخبار.. لكننا لم نكن نريد أن نخسر سمعتنا في الوسط الذي نشتغل فيه.. لقد أعطينا الرجل كلمتنا وقبضنا الثمن وكان لا بد من تنفيذ المهمة التي بدأناها بمراقبتكما ثم عرض صورتك على الدكتور برنار..

إذن فالرجل لم يكن غبيا ولا ساذجا. يبدو أنه لاحظ تحركات الزهرة التي حاولت ألا تجعلها مريبة، ثم أمر بمراقبتها. طبعا، المراقبة أسفرت عن الكشف عن خالد، الذي يعرف برنار أنه هو من سجن ظلما في قضية زهرليزا. وغالبا عرف أنه جاء من أجلها.. هكذا قرر أن يتخلص منهما بأبشع طريقة وأرخصها، أو أغلاها..

- كم دفع لكما؟

- 5 آلاف يورو للشخص..

- تنزعان أرواح العباد من أجل 5 آلاف يورو..

- هذا ما نقوم به.. لكنني، الآن، في الحقيقة مدين لك بروح ولدي الذي أخرجته من موتٍ إلى حياة.. ماهو الثمن الذي تريده؟

- أولا: أن تتركنا وشأننا طبعا.. ثانيا: أن تخبر الدكتور برنار في سجنه أنك قد أديت المهمة على أكمل وجه.. ولا أعتقد أنك ستجد صعوبة في تلفيق قصة كاملة بخصوص ذلك..

- أعدك أنني سأفعل.. واعلم أن خدماتي كلها رهن إشارتك.. هيا يا أخي لننسحب.. وأنت اعذرينا يا آنسة.. لقد كنا شديدي الفظاظة فعلا.. لكنه عملنا .. أرجو أن تتفهمي هذا..

يحتضن سولومون خالد ويسحب أخاه وراءه ثم ينطلقان. خالد يفكر في قول شيء أو شيئين لكنه يتراجع. الزهرة مصدومة ذاهلة..

يوصلها إلى منزلها.. تلوح إليه بكفها وتنزل..

لا كلمة قيلت.. لا لوم.. لا عتاب.. لا اعتذار.. لا شيء..

فقط هو الصمت كان وظل سيد الموقف حتى افترقا.

يدخل خالد البيت وهو يشعر بحمى شديدة تنتابه.. الآن تبدأ كل آثار الحادث في الظهور عليه.. جسده يرتجف بقوة.. قلبه يخفق.. قدماه كأنهما عجينتي معكرونة.. يرتمي فوق فراشه وهو يلهث كأنه عدا للتو عشرات الكيلومترات..

يحمد الله في سرّه على نجاته. لا يكاد يصدق مرة أخرى أن كل هذا يحدث له.. كل هذه الصدف.. كل هذه النكبات المتبوعة بانفراج غريب سببه ثانية واحدة أو أقل..

يحاول أن ينام فيفشل فشلا ذريعا. يشغّل جهاز الكمبيوتر ويجلس أمامه متأملا غير قادر على الإتيان بأية حركة. يطفئه. ينهض إلى النافذة ويتأمل ليل بروكسيل.. المدينة التي لا يدري إن كان قد أحبها أم كرهها، لكنه بدون شك سيغادرها متى ظهرت له أول فرصة كي يعود لحضن طنجة.. الوحيد الذي يستطيع أن يشفي كل جراح الروح هذه..

-34-

إرهاصات حبّ تنتهي بمكر وخديعة.. تعارف لطيف ينتهي بصدمة..

في الأولى كان الطريدة. في الثانية كان الصياد. لكن النتائج دائما كانت على غير ماتشتهي سفنه.

يمضي خالد أيامه ما بين العمل والبيت. لم يعد يطيق التجول في شوارع بروكسيل بعد الحادث. كان يعلم أنه جرح كبير لن يشفيه سوى الزمن.. وطنجة.

أحيانا يتبادل مع الزهرة حديثا خفيفا على الفيسبوك.. حديث عابر لا معنى له في الغالب. عبارات مجاملة لا أقل ولا أكثر. عبارات تحاول بها هي على ما يبدو ألا تبدو كدنيئة تخلّت عنه عند أول محك حقيقي.. بينما هو يحاول ألا يقطع حبل ودٍّ اهترأ بسبب ذات المحكّ..

كلاهما يجامل. كلاهما يفتعل. كلاهما يتهرب من الحديث عن يوم الحادث.

لم يعتذر لها. أيّ اعتذار يمكن أن تقدمّه لشخص كنت ستكون السبب في فقدانه حياته؟ الاعتذار - ها هنا- أقبح من الزلّة ذاتها. يبدو أن دواء الصمت لازال قادرا على شفاء جروح كثيرة.. أو محاولة ذلك على الأقل.

معاذ يحترم صمته. يحاول أحيانا أن يخرجه من عزلته تلك باقتراح أنشطة يعرف أنها في الغالب ستثير حماس خالد.. لكن أذني خالد كانتا من طين وعجين.. الرفض هو الجواب في كل مرة. يستسلم معاذ ويترك خالد يأخذ وقته في علاج جرحه ذاك بنفسه.. قمة الحكمة أن تترك الآخرين وشأنهم أحيانا كثيرة. ومن يّوت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا.

الشيء الوحيد الذي كان يخفف عن خالد آلامه هو متابعته لقضية زهرليزا على عدد من المواقع الإخبارية البلجيكية والمغربية. عادت زهرليزا إلى المتحف معززة مكرمة. تم القبض على الدكتور برنار وكل من تعاون معه، بعد اعتراف مفصل من طرفه.. لم تشر كل الصحف التي طالعها إلى اسم هدى، لكنهم غالبا كانوا يقصدونها ب»كل من تعاون معه«، هي والعصابة الدولية تلك.

تمر شهور ثلاثة.. يقترب موسم عودة المهاجرين المغاربة من أوروبا إلى أرض الوطن.. موسم العبور. اللحظة التي انتظرها خالد بفارغ الصبر للعودة إلى معشوقته الأبدية طنجة.

يسافران معا هو ومعاذ من بروكسيل إلى طريفة بالسيارة. أمواج كبيرة من المهاجرين تعبر الفوج تلو الآخر. شرطة الحدود تكتفي بتمرير الجميع دون مراقبة الجوازات تقريبا. استعمل خالد جوازا قديما تدبره له معاذ ورفعه في وجه الجمركي الذي أمره عبر الزجاج الحاجز أن يواصل سيره.. من يمتلك الوقت لترف مراقبة عائدٍ إلى وطنه؟ الخطر يأتي من القادمين سرّا وليس من العائدين جهرا.

تصل الباخرة إلى ميناء طنجة حيث يبلغ الزحام أشده. ينتهز خالد فرصة مشاجرة بين شرطي ومهاجر فينزل من سيارة معاذ ويعبر تلك النقطة من الميناء على قدميه.. ثم يستدير ويقف وكأنه في انتظار شخص ما..

- أنت.. من سمح لك بالدخول إلى هنا؟!

- لقد طلبت إذنا.. أنا صحافي.. هاذي بطاقتي.. أقوم بتحقيق عن عودة المهاجرين.. أهناك مانع؟

- نعم، هناك مانع.. لابد أن تحضر لي رخصة من ولاية الأمن الرئيسية..

- أوه.. أرجوك.. لا ترهقني من أمري عسرا..

- لا أملك لك حلا.. هيا لا تعطلني..

- لا بأس.. لا بأس.. لا تغضب.. أقدر ضغط العمل..

هكذا، تظاهر خالد أنه كان في مدينة طنجة وليس في الباخرة. نجحت خدعته البسيطة تلك. خرج من الميناء سيرا على الأقدام وهو يتظاهر بالغضب لأنهم منعوه من إنجاز تحقيقه..

أوصله معاذ إلى حيّـــه الذي اشتاق له. يجد «عزيزة رحمة» تحاول أن تصلح المصعد بمجهود خاص وهي تتأوّه..

- ألم يغيّروا هذا الصندوق الأسود بعد؟!

- خالد.. ولدي...!!

يرتمي خالد في أحضان العجوز. لحظة انتظرها كثيرا جدا. لم يقل أي شيء. فقط بقي يلتمس الأمان في حضنها لدقائق وهي تداعب شعره ودموعها تنساب على خدّيها كحال كل الطيبين. عند الفرح يبكون، وعند الحزن يبكون..

قطته «الطمأنينة» تموء بقوة وتتمسح بقدمه. يعرف أنها لم تنسه. يحملها بين يديه ويصعد شقته. هاهي ذي كما تركها، بل أفضل بكثير. «عزيزة رحمة» قامت بالواجب وأكثر. لا أوساخ.. لا أتربة.. لا رطوبة.

يتساءل: ماذا كنت سأفعل بدونك يا عزيزة رحمة؟

يضع أمامه صحن «اللوبية» الذي أصرت عزيزة رحمة على أن يتذوق منه قبل أن يفعل أيّ شيء آخر.

ينظر إلى جهاز الكمبيوتر الصامت. يخاطبه: منك كانت بداية كل شيء، لكنك تستكين وتتظاهر بالبراءة.

تبدأ حياة خالد في العودة إلى دورتها الطبيعية بعد أن زال دوار السفر ودوار الغربة. يوما عن يوم يسترجع الأيام الخوالي. يسترجع خالد الذي نسيه في غمرة مغامرته تلك.

يتساءل حقا إن كانت مغامرة تلك التي خاضها.. ما معنى المغامرة على أية حال؟! أليس الشخص الموجود في غرفة مغلقة هو شخص آمن مبدئيا؟ لكنه في الحقيقة مهدد بنقص الطعام والشراب والأكسجين.. أحيانا تكون قمة المغامرة هي محاولتك التماس الأمان.

صوت طرقات على الباب...

- المهدي.. أهلا ومرحبا.. كيف حالك؟

- ممتاز مادمت قد عدت لنا.. المهم.. جئتك من سبأ بنبأ..

- اللهم اجعله خيرا..

- لا أعلم أشرّ هو أم خير، لكن إدارة المتحف الأمريكي اتصلت بي وطلبوا مني أن تزورهم غدا في المتحف على الساعة الحادية عشرة بالضبط..

- لم تعرف ماذا يريدون بالضبط؟

- لا.. ولم أشأ أن أطيل الحديث لأنني عاتب عليهم كما تعلم مذ طردوني..

- نعم أفهم..

يصعد خالد ما يسمى «الدروج ميريكان».. يدخل الدرب الذي يقع به المتحف الأمريكي. يضغط جرس الباب وينتظر. يفتح له الباب حارس الأمن..

- تفضل، إنهم ينتظرونك هناك في تلك القاعة..

- شكرا جزيلا..

بمجرد ما يلج خالد القاعة يسمع صوت انفجارات وفرقعات، فيتراجع جزعا:

- ما الذي يحدث هنا؟!

-35-

كان حفلا بسيطا أنيقا. لم يكن هناك الكثير من الحضور. فقط موظفو المتحف الأمريكي وصديقا خالد المهدي ومنير، وبضع صحافيين. ألجمت المفاجأة في بادئ الأمر لسان خالد فصمت عن الكلام المباح. يومئ برأسه شاكرا عاجزا عن الكلام بينما يصفق له الجميع إذ يدخل باب المتحف، بينما يتسلى البعض بتفجير بالونات ومفرقعات على سبيل الترحيب..

من وسط الوجوه يطل وجه نحيل باسمٌ بعيون سوداء ينحرف سواد إحداها نحو اليسار.. وجه الزهرة. يصعق خالد.

- أأنت وراء كل هذا؟

- ومن غيري؟ في كل الأحوال كان لابد لأحد أن يخبرهم بالحقيقة كاملة.. من الجحف حقا ألا يعلم أحد بالتضحيات التي بذلت من أجل اللوحة ومن أجل طنجة..

- ما فعلتهُ لأحـــمد..

- مثالية جميلة.. وأعرف أنك ما كنت لتفعل ذلك يوما.. أنا قمت بالمهمة بدلا عنك لأعفيك مما لم ولن تفكر فيه أصلا!

- لا أدري أأتفاجأ من الحفل أم من وجودك هنا؟

- لقد حضرت قبلك بثلاثة أيام، وجئت المتحف كي أحكي لهم كل القصة.. أما الاحتفاء بك فكان اقتراحا منهم لا مني بصراحة..

- اعتقدت أنها كانت آخر مرة أراك فيها يوم أوصلتك بعد أن...

- توقف.. لا تنكأ جرحا بدأ يندملْ.

كانت هناك كعكعة في وسط المائدة المستطيلة كتب عليها «زهرليزا 1952-2013».

- ماذا تقصدون بالتاريخين؟

- إنهما تاريخي ولادة الزهرة.. الأول سنةَ رُسمت، والثاني سنةَ وُلدت من جديد بعد أن أعدتَـها.

يلقي مدير المتحف كلمة قصيرة يسرد فيها تاريخ لوحة زهرليزا وحكاية خالد معها قبل أن يمنح الكلمة لخالد. يتفاجأ الأخير. يتنحنح.

- شكرا لله.. شكرا لطنجة.. شكرا لكم..

فقط ثلاث جمل قبل أن يشير بيده للجميع أن واصلوا الاحتفال.. لقد قلت ما لديّ. لقد كان خالد صادقا في عدم رغبته في الفخر بما فعله من أجل طنجة. لقد قدمت له طنجة أشياء كثيرة لا يمثل ما فعله عُشرها في نظره.

تقول له الزهرة:

- هناك جديد في موضوع التحقيق مع عصابة بلجيكا..

- صحيح؟ آتيني آخر الأخبار.. لقد لقيتُ من لهفتي نصبا.

- لقد حصلت هدى على البراءة..

- هل أنت جادّة؟

- نعم.. لقد وجدت تفاصيل قضيتها في جريدة محلية غير واسعة الانتشار.. .. واضح جدا أنها داهية.. محاميها طالب من الدكتور برنار والعصابة أن يأتوا ببرهانهم إن كانوا صادقين.. فالبينة على من ادعى. لكن واضح جدا أنه لم يكن لديهم سوى الكلام وبضع رسائل غامضة المحتوى لا تستطيع أن تمسك من خلالها بشيء. في آخر المطاف وجدوا أن شراء حقيبة سفر كهدية ليس جريمة يعاقب عليها القانون فأطلق سراحها..

- لا بأس.. هذا أفضل.. لا أحب أن يعيش أحد نصف ما عشته في السجن، خصوصا لو كان أنثى..

- لا زال في القلب شيءٌ من هدى؟

- ثقي أنني لا أعاني من متلازمة «ستوكهولم». صحيح أنني لا أكرهها ولا أرغب في الانتقام منها، خصوصا بعد أن رأيت ما رأيت من الحياة.. لكن هذا لا يعني أن في القلب أيّ مشاعر نحوها.. كما لا يعني ألا نقوم بالتسلية التالية..

- وما هي هذه التسلية؟

يجر خالد الزهرة من يدها ثم ينادي أحد الصحافيين قائلا:

- اسمع.. سأخصك بحكايتي الكاملة لنشرها بشكل حصري لكن بشرط..

- شروطك أوامر..

- أن تزين تقريرك بهذه الصورة التي ستلتقط لي الآن أنا والزهرة..

- كلامٌ لا يُردّ..

يقف خالد والزهرة وبينهما، في الخلف، تبدو لوحة زهرليزا.. يبتسمان. يضغط الصحافي زر التصوير.

تسأل الزهرة:

- لماذا بالضبط هذه الحركة؟

- سنرسل هذا التقرير كاملا لعزيزتنا هدى بعد أن نحصل على عنوانها.. عدم الحقد لا يعني عدم التشفي..

- يالك من عابث..

المهدي يخبر خالد أنه سيعود للعمل في المتحف بعد اعتذار وطلب من الإدارة. ينتهي الحفل. يغادر الجميع. يقصد خالد والزهرة مقهى «الحافة» المطل على البحر.. الأمواج تغني سمفونية سعيدة كانت قد نسيت إيقاعها ذاتَ حزن. شمسُ صيفِ طنجة تلوح بيدها مودعة تاركة زمام الأمر لـــليلها الصاخب.

خالد والزهرة صامتان يتأملان المشهد. يقولان آلاف الكلمات ولا يُسمع حسيسها. يتحدثان ولا يحركان شفاههما. صمتهما يثرثر بينما قلوبهما تعلن ميلاد حبّ طاهر نقي تحضنه طنجتهما..

خالد، أخيرا، يبدأ في ذهنه بكتابة أولى كلمات روايته القادمة:

شعرة واحدة.. ثانية واحدة.. حركة بسيطة.. كل هذه التفاصيل التي لا نلقي لها بالا، قد يكون لها - أحيانا كثيرة - تأثير كبير على حياتنا.. بل قد تغير حيواتنا إلى الأبد، وبشكل كامل. تردّد على بعد ملمتر واحد قد يحول دفة مركب الحياة إلى اتجاه لم نكن نعلمه...

- النهـــــــــــــاية -



عبد الواحد استيتو – قاص وروائي مغربي
من مواليد طنجة سنة 1977

الإصدارات:

2004.مجموعة قصصية مشتركة بعنوان «أشياء تحدث» – منشورات ألطوبريس

2006.مجموعة قصصية بعنوان «هروب» - مطبوعات اتحاد كتاب المغرب

2009.كتاب «هيا إلى النجاح» - دار طويق السعودية

2009.رواية «الآخر» (إلكترونية) - ترجمة

الجوائز:

2005.جائزة اتحاد كتاب المغرب للقصة القصيرة للشباب

2005.جائزة ديوان العرب للقصة القصيرة - مصر

2004.جائزة نادي حائل الأدبي للقصة - السعودية

2001.جائزة المبدعون للرواية - الإمارات

